المطلب الرابع عشر:
المنادى المعرب (نداء المضاف)

ينقسم المنادى المعرب إلى نداء المضاف وإلى نداء النَّكرة غير المقصودة والشَّبيه بالمضاف.

أما نداء المضاف فهو أكثر الأنواع في القرآن الكريم، ويكون منصوبًا.

وأمَّا صيغ (نداء المضاف) فهي على النَّحو الآتي مرتَّبةً على حسب التَّرتيب المصحفي بالنِّسبة لأوَّل موضع ترد فيه، مع بيان ما لم يسبق بيانه:

جدول توضيحي لصيغ نداء المضاف على حسب الترتيب المصحفي

١ - ﴿يَا بَنِي إِسْرائِيلَ﴾	٩ - ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾	١٧ - ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾
٢ - ﴿يَا قَوْمِ﴾	١٠ - ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾	١٨ - ﴿يَا ابْنَ أُمَّ﴾
٣ - ﴿يَا بَنِيَّ﴾	١١ - ﴿يَا بُنَيَّ﴾	١٩ - ﴿يَا وَيْلَنَا﴾
٤ - ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾	١٢ - ﴿يَا أَبَتِ﴾	٢٠ - ﴿يَا عِبَادِيَ﴾
٥ - ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾	١٣ - ﴿يَا أَبَانَا﴾	٢١ - ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾
٦ - ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ..﴾	١٤ - ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾	٢٢ - ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾
٧ - ﴿يَا وَيْلَتَى﴾	١٥ - ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾	٢٣ - ﴿يَا حَسْرَتَا﴾
٨ - ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾	١٦- ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾	٢٤ - ﴿يَا قَوْمَنَا﴾

أولًا: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾ [البقرة:٤٠]:

وقد سبقَ ما يتعلَّق بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءاتِ العَامَّة)، كما سبق أنَّه من (نداء النِّسبة).

ثانيًا: ﴿يَا قَوْمِ﴾ [البقرة:٥٤]:

وقد سبقَ ما يتعلَّق بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءاتِ العَامَّة).

ثالثًا: ﴿يَا بَنِيَّ﴾ [البقرة:١٣٢]:

١ – مواضع ورود هذه الصيغة:

وقد جاءت في (ثلاثة) مواضع:

الأول: نداء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بنيه:

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ [البقرة:١٣٢].

والمعنى أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَّى، ثمَّ وَصَّى بعده يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَنِيهِ، فقالا جميعًا: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾..[(١)]، يعني: اختار لكم الدِّين، أي: الإسلام.

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه أمر الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالإسلام، وأنَّه قال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]، وأنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصَّى بنيه، ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وصَّى بنيه أن لا يموتنَّ إلَّا وهم مسلمون[(٢)].

---

(١) انظر: النُّكت والعيون (١/١٩٣)، القرطبي (٢/١٣٥)، مقاتل (١/٧٩)، النَّيسابوري (١/٤٧).

(٢) انظر: الجواب الصَّحيح (٢/١٢٩)، دقائق التَّفسير (١/٣٣٨).

أمَّا تفصيل (الوصيَّة) فقد "أمر أبناءه أن يكونوا على ملَّةِ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهي نظير ما وصَّى به إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بنيه، فأجمل هنا اعتمادًا على ما صرَّح به في قوله سابقًا: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]، وهذا تنويه بالحنيفيَّة التي هي أساس الإسلام، وتمهيد لإبطال قولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة:١٣٥]، وإبطال لزعمهم أنَّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان على اليهوديَّة، وأنَّه أوصى بها بنيه فلزمت ذرِّيته فلا يحولون عنها"(١).

والحاصل أنَّ الإسلام هو أساس قبول العمل فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]. فإنَّ من الكافرين من عمل شيئًا من الصَّالحات فإذا أعمالهم هباءً منثورًا..يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالذينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور:٣٩]، أي: الأعمال التي كانوا يظنُّون أنَّها تنفعهم كالصَّدقة، وصلة الرَّحم، وإغاثة الملهوف، والإنفاق أو الكرم..فهي كالسَّراب، وهو ما يرى في الفلوات من لمعانِ الشَّمس عليها وقت الظَّهيرة فيظنُّ أنَّه ماء يجري على وجه الأرض حتَّى إذا وصل إليه لم يرَ ماءً ولا شرابًا، وإنَّما رأى سرابًا فعظمت حسرتُه، ووجد الله عَزَّوَجَلَّ له بالمرصاد فوفَّاه جزاء عمله، فكذلك الكافر يحسب أنَّ عمله ينفعه حتَّى إذا مات لم يجد شيئًا من الأعمال. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد انعقد الإجماع على أنَّ الكفَّار لا تنفعهم أعمالهم، ولا يثابون عليها بنعيمٍ ولا تخفيف عذاب، لكن بعضهم أشدُّ عذابًا من بعض بحسب جرائمهم"(٢).

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (١/٧٣٠).

(٢) إكمال المعلم، للقاضي عياض (١/٥٩٧). وانظر: شرح النَّووي على صحيح مسلم (٣/٨٧)، فتح الباري (٩/١٤٥).

وشبَّهها في موضعٍ آخر بالرَّماد الذي عصفت به الرِّيح في يوم شديد هبوب الرِّيح، فأصابت تلك الرِّيح المدمِّرة زرعَ قومٍ ظلموا أنفسهم بالمعاصي فأفسدته وأهلكته فلم ينتفعوا به. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثَلُ الذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم:١٨].

وقد جاء في الحديث: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: ابْنُ جُدْعَانَ[١] كان في الجاهليَّة يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فهل ذاك نَافِعُهُ؟ قَالَ: ((**لا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**))[٢].

الموضع الثَّاني: نداء يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بنيه:

﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف:٦٧]. ومما يستفاد من نداء يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ هنا أنَّه "لم يناقض توكُّله، بل قال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧]"[٣].

"ومما يوضِّحُ أن تعاطي الأسباب لا ينافي التَّوكل على الله عَزَّوَجَلَّ: قوله عَزَّوَجَلَّ عن يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ أمرهم في هذا الكلام بتعاطي السَّبب، وتسبب في ذلك بالأمر به؛ لأنَّه يخاف عليهم أن تصيبهم النَّاس بالعين، لأنَّهم (أحدَ عَشَرَ) رجلا أبناء رجلٍ واحد، وهم أهل جمالٍ وكمالٍ وبسطةٍ في الأجسام. فدخولهم من بابٍ واحدٍ مظنَّةٌ لأن تصيبهم العينُ فأمرهم بالتَّفرق،

---

(١) "قال العلماء: وكان بن جدعان كثيرَ الإطعام، وكان اتخذ للضيفان جَفْنَةٌ يُرقى إليها بسلَّمٍ [يأكُلُ منها القائِمُ والرَّاكِبُ لِعِظَمِها]، وكان من (بني تميم بن مرَّة) أقرباء عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وكان من رؤساء قريش، واسمه: عبد الله، و(جدعان) -بضم الجيم، وإسكان الدَّال المهملة، وبالعين المهملة-". شرح النَّووي على صحيح مسلم (٣/٨٧).

(٢) أخرجه مسلم [٢١٤].

(٣) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التَّفسير (١٥/١١٣-١١٤).

والدُّخول من أبوابٍ متفرِّقة تعاطيًا للسَّبب في السَّلامة من إصابة العين، كما قال غير واحد من علماء السَّلف. ومع هذا التَّسبب فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾. فانظر كيف جمع بين التَّسبب في قوله: ﴿لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾، وبين التَّوكل على الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وهذا أمرٌ معلومٌ لا يخفى إلا على من طمسَ الله عَزَّوَجَلَّ بصيرته!!. والله عَزَّوَجَلَّ قادر على أن يسقط لها [أي: لمريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ] الرُّطب من غير هزِّ الجذع، ولكنَّه أمرها بالتَّسبب في إسقاطه بهزِّ الجذع"[1].

الثالث: نداء من يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لبنيه أيضًا:

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف:٨٧]، أي: فتعرَّفوا، وهو تَفَعُّلٌ من (الحسِّ)، وهو في الأصل: (الإدراك) بالحاسة، وكذا أصل (التَّحسس): طلب الإحساس، واستعماله في التَّعرف استعمال له في لازم معناه[2]. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف:٨٧]، أي: لا تقنطوا من فَرَجِه عَزَّوَجَلَّ وتنفيسه، وأصل معنى: (الرَّوح) —بالفتح—: التَّنفس. يقال: (أراح الإنسان) إذا تنفس، ثُمَّ استعير للفرج كما قيل: (له تنفيس) من النَّفس[3]. كأنَّه عَلَيْهِٱلسَّلَامُ تنسَّم نسائمَ الفرج بعد أن رَفَعَ الأمرَ إلى مولاه عَزَّوَجَلَّ[4].

ومن رحمته وفرجه وتيسيره ولطفه في جمع الشَّتات، وتيسير المراد[5].

---

(١) أضواء البيان (٣/٤٥٩).

(٢) انظر: روح المعاني (١٣/٤٤)، انظر: القرطبي (٩/٢٥٢)، تفسير أبي السُّعود (٤/٣٠٢).

(٣) انظر: تفسير أبي السُّعود (٤/٣٠٢)، روح المعاني (١٣/٤٤)، المفردات، للرَّاغب، مادَّة: (روح) (ص:٣٦٩)، بصائر ذوى التَّمييز (٣/١٠٤)، مقاييس اللغة، لابن فارس، مادَّة: (روح) (٢/٤٥٤).

(٤) انظر: روح المعاني (١٣/٨١).

(٥) انظر: نظم الدُّرر (١٠/٢٠٤).

"وكلمة: ﴿رَوْحِ﴾ أدقُّ دلالةً وأكثر شفافيّةً. ففيها ظلُّ الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من روْح الله عَزَّوَجَلَّ النَّدي: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، فأمَّا المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله عَزَّوَجَلَّ، النَّدية أرواحهم بروْحه، الشَّاعرون بنفحاته المحيية الرَّخيَّة، فإنهم لا ييأسونَ من روْح الله عَزَّوَجَلَّ، ولو أحاط بهم الكربُ، واشتدَّ بهم الضِّيقُ. وإنَّ المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه، وفي أنس من صلته بربِّه عَزَّوَجَلَّ، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه عَزَّوَجَلَّ"(١).

ويمتنع أن يكون للأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يأسٌ من رَوح الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يقعوا في الاستيئاس، بل المؤمنون ما داموا مؤمنين لا ييأسون من روح الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه السُّورة تضمَّنت ذكر المستيئسينَ، وأنَّ الفرج جاءهم بعد ذلك، لئلَّا ييأس المؤمن، ولهذا فيها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١](٢).

٢ – اللغة:

الأصل (بنين)، حذفت النُّون عند الإضافة، وأدغمت (ياء الجمع) في (ياء المتكلِّم)، وحرِّكت المشدَّدة بالفتحة.

رابعًا: ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٧٩]:

وقد سبقَ ما يتعلَّق بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءاتِ العَامَّة).

(١) الظِّلال (٢٠٢٦/١٣).

(٢) انظر: كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التَّفسير (١٥٢/١٥).

خامسًا: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ [آل عمران:٢٦]: [الزمر:٤٦]:

١ – ورود هذه الصيغة:

أما ورود هذه الصيغة ففي موضعين على النحو التالي:

الموضع الأول: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران:٢٦].

الموضع الثاني: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر:٤٦].

٢ – إجمال ما يستفاد مما ولي المنادَى:

الفائدة الأولى: الميم في (اللَّهُمَّ):

الميم في قوله ﷻ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ عوض عن حرف النِّداء؛ ولذلك لا يجتمعان. وهذا من خصائص الاسم الجليل، كدخوله عليه مع حرف التَّعريف، وقطع همزته، ودخول تاء القسم عليه. وقيل: أصله: (يا الله آمنا بخير)، أي: اقصدنا به، فخفِّف بحذف حرف النِّداء ومتعلَّقات الفعل وهمزته[(١)].

الفائدة الثانية: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾: أي: يا مالك الملك.

فكأن في هذه الجملة الكريمة: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ دعاءين خاشعين:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩٧/٦)، القرطبي (٥٣/٤)، تفسير أبي السُّعود (٢١/٢)، الدُّر المصون (٥٣/٢)، المحرَّر الوجيز (٤١٧/١)، روح المعاني (١٠٩/٢)، معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٣٩٤/١)، التِّبيان (١٣٠/١)، البيضاوي (١١/٢)، تفسير النَّسفي (٢٢٨/١)، تفسير النَّيسابوري (١٣٦/٢)، بحر العلوم (٢٠٤/١)، البغوي (٤٢٥/١)، زاد المسير (٩٠/٢)، ابن عادل (١٣٣/٥)، حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٥٠/٥)، فتح القدير (٣٧٨/١) معاني القرآن، للفراء (٢٠٣/١)، المفردات (ص:٨٣)، تأويل مشكل القرآن (ص:٢٩٥).

أما الدعاء الأول فهو بلفظ الجلالة المعبر عنه بقوله: (اللَّهُمَّ)، أي: يا الله، وفي هذا النداء كل معاني العبودية والتنزيه والتقديس والخضوع.

وأما الدعاء الثاني فهو المعبر عنه بقوله: ﴿مالِكَ الْمُلْكِ﴾ أي: يا مالك الملك، وفي هذا النداء كل معاني الإحساس بالربوبية، والضعف أمام قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وسلطانه.

فقوله: ﴿مالِكَ﴾ منصوب بحرف النداء المحذوف(١).

الفائدة الثالثة: معنى: ﴿الْمُلْكِ﴾ من الآية الأولى:

قال العلامة محمد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المُلك) "بضمِّ الميم: اسم لأكمل أحوال (المِلك) -بكسر الميم-، و(المِلك): -بالكسر- جنس للمُلك بالضَّمِّ، وفسِّر (المُلك) المضموم بضبط الشَّيء المتصرَّف فيه بالحُكم. وهو تفسير قاصر، وأرى أن يُفسَّر بأنَّه تصُّرفٌ في طائفةٍ من النَّاس ووطنهم تصرُّفًا كاملا بتدبيرٍ ورعاية، فكلُّ (مُلك) بالضَّمِّ (مِلك) بالكسر، وليس كلُّ (مِلك) مُلكًا"(٢).

---

(١) انظر: التِّبيان (١٣٠/١)، معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٣٩٤/١)، الطبري (٢٩٩/٦)، الدُّر المصون (٥٣/٢-٥٤)، ابن عادل (١٢٥/٥)، تفسير أبي السُّعود (٢١/٢)، تفسير القرطبي (٥٤/٤)، النَّسفي (٢٢٨/١)، فتح القدير (٤٩٧/١)، إعراب القرآن، للنَّحاس (٣٦٥/١). وفي (الفريد): "نداء ثان، أي: يا مالك الملك، ولا يجوز أن يكون صفة لقوله: ﴿اللَّهُمَّ﴾ عند صاحب (الكتاب) [أي: سيبويه. انظر: (الكتاب) بتحقيق عبد السَّلام هارون، (١٩٦/٢)] وموافقيه؛ لأنَّه لحقه شبه الصَّوت، والأصوات لا توصف كـ:(فاق) وشبهه. وأجاز ابن السَّراج والزَّجاج والمبرد وغيرهما من البصريين والكوفيين أن يكون ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ نعتا لقوله: ﴿اللَّهُمَّ﴾، قائلين: إنَّ الاسم ومعه الميم بمنزلته، ومعه (يا)، فكما يجوز أن يوصف ومعه (يا) يجوز أن يوصف ومعه الميم. ونظيره: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾". الفريد: (٥٥٨/١)، معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٣٩٤/١)، المقتضب، للمبرّد (٢٣٩/٤)، الكتاب، لسيبويه (١٩٦/٢)، الأصول في النَّحو، لابن السَّراج (٣٣٨/١).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (١١/٢٩).

الفائدة الرابعة: يستفاد من النداء في الموضع الأول أنه "نداءٌ خاشعٌ في تركيبه اللَّفظي إيقاع الدُّعاء. وفي ظلاله المعنويَّة روحُ الابتهال. وفي التفاتاته إلى كتاب الكون المفتوح استجاشةٌ للمشاعر في رفقٍ وإيناس. وفي جمعه بين تدبير الله عَزَّوَجَلَّ، وتصريفه لأمور النَّاس، ولأمور الكون إشارة إلى الحقيقة الكبيرة: حقيقة الألوهيَّة الواحدة القوامة على الكون والنَّاس، وحقيقة أن شأن الإنسان ليس إلَّا طرفًا من شأن الكون الكبير الذي يُصرِّفه الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ الدَّينونة لله عَزَّوَجَلَّ وحده هي شأن الكون كلِّه كما هي شأن النَّاس، وأنَّ الانحراف عن هذه القاعدةِ شذوذٌ وسفه وانحراف! إنها الحقيقة النَّاشئة من حقيقة الألوهيَّة الواحدة..إله واحد فهو المالك الواحد..هو ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ بلا شريك..، ثُمَّ هو من جانبه يملك من يشاء ما يشاء من ملكه.."[1].

الفائدة الخامسة: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾:

﴿اللَّهُمَّ﴾ منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب، و(الميم) المشدَّدة عوض من (يا) النداء المحذوفة. و﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ منادى مضاف، وكذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

سادسًا: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ..﴾ [آل عمران:٦٤]:

وقد سبقَ ما يتعلَّق بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءاتِ العَامَّة)، وسبق أنَّها من نداء التَّخصيص.

(١) في ظلال القرآن (٣/٣٨٤).

سابعًا: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ [المائدة:٣١]:

في (ثلاثة) مواضع :

الموضع الأوَّل: ﴿يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ﴾ [المائدة:٣١][(١)]:

١ – بيان ما ولي المنادَى:

في هذه القصِّة بيانٌ لتأثير الحسد، وأنَّه يؤدِّي إلى المخاطر والمهالك والقبائح، فيقضي على رابطة الأخوَّة، ويؤدِّي إلى سفك الدِّماء[(٢)].

ومعنى (الاستفهام) هنا: "الإنكار على نفسه والنَّعي، أي: لا أعجز عن كوني مثل هذا الغُرَاب، وفي ذلك هضمٌ لنفسه، واستصغار لها بقوله: مثل هذا الغُرَاب. وأصل (النِّداء) أن يكون لمن يعقل، ثُمَّ قد ينادي ما لا يعقل على سبيل المجاز كقولهم: (يا عجبًا) و(يا حسرة)، والمراد بذلك التَّعجب. كأنَّه قال: انظروا لهذا العجب، ولهذه الحسرة، فالمعنى: تنبَّهوا لهذه الهلكة. وتأويله: (هذا أوانك فاحضري)[(٣)].

---

(١) وتمام الآية: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

(٢) سبق التَّعريف (بالحسد) وبيان آثاره.

(٣) البحر المحيط (٤٨١/٣). وقد "قرأ الجمهور: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ بألف بعد التَّاء، وهي بدل من ياء المتكلِّم، وأصله: (يا ويلتي) بالياء، وهي قراءة الحسن. وأمال حمزة والكسائي وأبو عمرو ألف ﴿ويلتى﴾. وقرأ الجمهور: ﴿أَعَجَزْتُ﴾ بفتح الجيم. وقرأ ابن مسعود، والحسن، وفياض، وطلحة، وسليمان: بكسرها وهي لغةٌ شاذَّة، وإنما مشهور الكسر في قولهم : عجزت المرأة إذا كبرت عجيزتها". البحر المحيط (٤٨١/٣).

وكلمة: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ كلمة جزع وتحسُّرٍ، بمعنى: (يا هلاكي)، والألف فيها بدلٌ من (ياء المتكلِّم). والمعنى: (يا ويلتي احضري فهذا أوانك)، و(الويل) و(الويلة): الهلكة[1].

و(البعث) في قول عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾ "مستعملٌ في الإلهام بالطَّيران إلى ذلك المكان، أي: فألْهم الله عَزَّوَجَلَّ غرابًا ينزل بحيث يراه قابيل. وكأنَّ اختيار الغراب لهذا العمل؛ إمَّا لأنَّ الدَّفنَ حيلة في الغِربان من قبلُ، وإمَّا لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ اختاره لذلك لمناسبة ما يعتري النَّاظر إلى سواد لونه من الانقباض بما للأسيف الخاسر من انقباض النَّفس. ولعلَّ هذا هو الأصلُ في تشاؤم العرب بالغُرَاب، فقالوا: (غُراب البين). والضَّمير المستتر في ﴿يُرِيَه﴾ إن كان عائدًا إلى اسم الجلالة فالتَّعليل المستفاد من اللام وإسناد الإرادة حقيقتان[2]، وإن كان عائدًا إلى الغراب فاللام مستعملةٌ في معنى (فاء التَّفريع)[3]، وإسناد (الإرادة) إلى الغراب مجازٌ؛ لأنّه سبب الرُّؤية فكأنَّه مُرِيءٌ[4].

و﴿كَيْفَ﴾ يجوز أن تكون مجرَّدة عن الاستفهام مرادًا منها الكيفيَّة، أو للاستفهام، والمعنى: ليريه جواب[5] كيف يُواري؟[6].

---

(١) انظر: تفسير أبي السُّعود (٣/٢٨)، روح المعاني (٦/١١٦)، تفسير البيضاوي (٢/١٢٤)، السِّراج المنير (١/٣٧١). وسيأتي بيان معنى (الويل) مفصَّلا..

(٢) أقول: فيكون المعنى: أرى اللهُ عَزَّوَجَلَّ -وهو فاعل الرُّؤية حقيقة- القاتلَ..

(٣) أقول: فرَّع عن رؤية الغراب -وهو وسيلة وسبب- ما قام به من البحث في الأرض والمواراة..

(٤) أقول: أي: أنَّه أقام السَّبب -الذي هو الغراب- مقام المسبَّب -الرُّؤية، فكأنَّه، أي: الغراب- وهو لا يعقل - هو الذي أراه معلِّمًا إيَّاه؛ لأنَّه لما كان سبب تعليمه فكأنَّه قصد تعليمه، وفيه أيضًا تنزيلُ ما لا يعقل - الغراب -منزلةَ من يعقل - فاعل الرُّؤية الحقيقي، وذلك على طريقة المجاز المرسل.

(٥) أقول: أي: جواب الاستفهام الذي قد انبثق من نفسه، ماذا يفعل في هذه الجثَّة؟ كيف يواريها؟

(٦) أقول: والمعنى أنَّ الضَّمير المستكنَّ - أي: المستتر- في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيُرِيَهُ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ، أو الغراب، والهاء لقابيل -القاتل-، أي: ليريه اللهُ عَزَّوَجَلَّ أو ليريه الغراب، أي: ليعلمه؛ لأنه لما كان سبب تعليمه فكأنَّه قصد تعليمه على سبيل المجاز المرسل. وجملة: ﴿كَيْفَ يُوَارِي﴾ في موضع نصب على أنَّها مفعول ثانٍ ليرى.

و(السَّوْأة): مَا تَسُوء رؤيتُه، وَهِي هنا تغيُّر رائحة القتيل وتقطُّع جسمه"[1].

وفي (التَّحرير والتَّنوير) أيضًا: كلمة: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾: "من صيغ الاستغاثة المستعملة في التَّعجُّب، وأصله: (يا لَوَيْلَتِي)، فعوِّضت الألف عن (لام الاستغاثة) نحو قولهم: (يا عَجَبًا). ويجوز أن يجعل الألف عوضًا عن ياء المتكلِّم، وهي لغة، ويكون النِّداء مجازًا بتنزيل (الويلة) منزلة ما يُنَادَى[2]، كقوله: ﴿يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦]. والاستفهام في ﴿أَعَجَزْتُ﴾ إنكاريٌّ. وهذا المشهد العظيم هو مشهد أوَّل حضارةٍ في البشر، وهي من قبيل طلب سَتر المشاهد المكروهة. وهو أيضًا مشهد أوَّل علم اكتسبه البشر بالتَّقليد وبالتَّجربة، وهو أيضًا مشهد أوَّل مظاهر تَلقِّي البشر معارفه من عوالم أضعفَ منه كما تَشَبَّه النَّاس بالحيوان في الزِّينة، فلبسوا الجُلُود الحسنة الملوَّنة وتكلَّلوا بالريش الملوَّن وبالزُّهور والحجارة الكريمة، فكم في هذه الآية من عبرة للتَّاريخ والدِّين والخُلُق؟!"[3].

٢ – بيان العاقبة:

وبعد أن فعل ما فعل من قتل أخيه ماذا كانت العاقبة؟ قال عَزَّوَجَلَّ:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٣٠].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿..فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة:٣١].

وفي هاتين الآيتين بيانٌ لما آل إليه حاله بعد ما اقترفت يداه من القتل؛ إذْ رأى الغراب – وهو لا يعقل –يحتفل بإكرام أخيه الميِّت، ورأى نفسه –وهو يعقل– يجترئ على قتل أخيه، وهذه الموازنة إن دلَّت فإنَّما تدلُّ على عظم الجرم بالنِّسبة له، وفيها تعليمٌ

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (١٧٣/٦).

(٢) أقول: أي: تنزيلُ ما لا يعقل منزلةَ من يعقل، وهي علاقة من علاقات المجاز المرسل، والقرينة (نداء الويل)، وهو لا يعقل، والنُّكتة زيادة التَّحسُّر فكأنَّ المتحسِّر ينادي ويلته ويطلب حضورها، بعد تنزيلها منزلة من ينادي، ولا يكون ذلك إلا في أشدِّ الأحوال ألمًا.

(٣) التَّحرير والتَّنوير (١٧٣/٦–١٧٤).

للمخاطَبين ببيان جسامة مثل هذا الفعل، وفي الآيات بيانٌ يدلُّ على أنَّ عاقبة كلِّ ظالمٍ النَّدمُ والخسران.

ويحتمل أنَّ هذا النَّدم منه لم يكن ناشئًا عن خوف عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، ولا قَصْدِ توبة، فلذلك لم ينفعْه. وقيل: إنما ندمه كان على فقده لا على قتله، وإن كان فلم يكن موفيًا شروطه، أو ندم ولم يستمر ندمه[1].

وفي (أحكام القرآن): "فَنَقُولُ: من الغريب أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد أَخْبَرَ عنه أَنَّهُ نَدِمَ، وهو فِي النَّارِ!، وقال ﷺ: ((**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**)). قلنا: عن هذه (ثلاثة) أجوبة:

الأوَّل: أَنَّ الحديث ليس يَصِحُّ[2]، المعنى صحيح، وَكُلُّ مَنْ نَدِمَ فقد سَلِمَ، لكنَّ النَّدم له شروطٌ، فكلُّ من جاء بشروطه قُبِلَ منه، ومن أَخَلَّ بها أو بشيءٍ منها لم يقبل.

الثَّاني: أَنَّ معناه ندم ولم يسْتَمِرَّ ندمُهُ، وإنَّما يقبل النَّدم إذا اسْتَمَرَّ.

الثَّالث: أَنَّ النَّدم على الماضي إنَّما ينفع بشرط العزم على ألَّا يفعل في المستقبل[3].

٣ – طبيعة الإنسان فيها نوازعُ الخيرِ والشَّر:

وممَّا يستفاد من هذه القصَّة ما أجمله صاحب (الظِّلال) بقلمه الصَّناع، وبيانه المطواع حيث قال:

"هذه القصَّة تقدِّم نموذجًا لطبيعة الشَّرِّ والعدوان، ونموذجًا كذلك من العدوان الصَّارخ الذي لا مبرِّر له. كما تقدِّم نموذجًا لطبيعة الخير والسَّماحة، ونموذجًا كذلك من

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/١٤٢).

(٢) والغريب أنَّه ذكر أنَّ الحديث لا يصحُّ، وقد أخرجه غير واحد، وهو مرويٌّ من أكثر من طريق، فقد أخرجه من أصحاب السُّنن ابن ماجه، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، [٤٢٤٢]، وأحمد [٣٣٨٧]. والحديث صحَّحه الحاكم، ووافقه الذَّهبي. انظر: المستدرك على الصَّحيحين [٧٦١٢، ٧٦١٣]. قال الحافظ في (الفتح) (١٣/٤٧١): "وهو حديث حسن من حديث بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخرجه بن ماجة، وصحَّحه الحاكم..". انظر: مرعاة المفاتيح، (٨/٣١)، [٢٣٥٧]، مشكاة المصابيح (٨/٧١)، مصباح الزجاجة (٤/٢٤٨)، أسنى المطالب (ص:٣١٠)، كشف الخفاء (٢/٣١٥).

(٣) أحكام القرآن، لابن العربي (٢/ ٨٧-٨٨).

الطِّيبة والوداعة. وتقفهما وجهًا لوجه، كلٌّ منهما يتصرَّفُ وفق طبيعته. وترسم الجريمة المنكرة التي يرتكبها الشَّر والعدوان الصَّارخ الذي يثير الضَّمير، ويثير الشُّعور بالحاجة إلى شريعة نافذةٍ بالقصاص العادل، تكفُّ النَّموذج الشَّرير المعتدي عن الاعتداء، وتخوِّفه وتردعه بالتَّخويف عن الإقدام على الجريمة، فإذا ارتكبها -على الرَّغم من ذلك- وجد الجزاء العادل، المكافئ للفعلة المنكرة. كما تصونُ النَّموذج الطَّيب الخيِّر، وتحفظ حرمة دمه. فمثل هذه النُّفوس يجب أن تعيش، وأن تصان، وأن تؤمن في ظلِّ شريعة عادلة رادعة"[1].

والحاصل أنَّ الآيات قدَّمت نموذجين متقابلين، وبيَّنت أنَّ الإنسان مركَّبٌ من صفاتٍ متقابلة من الخيرِ والشَّرِّ، والعقيدة التي جاء الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ هي التي توجِّه الإنسان إلى ملازمة الصِّفات والميول الخيِّرة، وإلى كبح جماح الصِّفات المقابلة لصفات الخير، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ حينما تعلَّقت إرادتُه بإيجاد هذا الكون، اقتضت حكمتُه أن يختارَ الإنسان من بين المخلوقات الأخرى، فيجعله سيِّدَ هذا الكون، ويجعل سائر مظاهره مسخَّرةً لخدمته، فكان أن جهَّز هذا المخلوق بمجموعة من الصِّفات التي لا بدَّ منها؛ لتتكاملَ لديه القدرةُ على إدارةِ الكون وتعميره؛ وليتحقَّق فيه معنى التَّكليف المتفرِّع عن عبوديَّته لله عَزَّوَجَلَّ. ومن هذه الصِّفات -مثلًا- صفة القوَّة، وما يتفرَّعُ عنها من النُّزوعِ إلى السَّيطرةِ والعظمةِ والجاه، وبثَّ فيه مجموعةً من العواطف كالحُبِّ والكراهية والغضبِ والحَسَد أو الغبطة...الخ.. إلَّا أنَّ لهذه الصِّفاتِ آفاتٌ عظام، وهي سلاحٌ ذو حدَّين. إن استعمل أحدهما جاء بالتَّنظيم العظيم للكون، وبالخيرِ الوفيرِ للإنسان..وإن استعمل الآخر جاء بالشَّرِّ الوبيل، والفوضى الهائلة، وأورث الإنسانيَّة شقاءً لا آخر له. ومن نتائج الخطورة لهذه الصِّفات أنَّ من شأنها أن تحمل صاحبها على أن يستعملَ صفةَ القدرة -مثلًا- في ظلمِ الآخرين، وأن تتسابقَ جماعاتٌ في ميدانٍ من الصِّراع الدَّمويِّ على السُّلطان والجاه والثَّروات والممتلكات..الخ. ومن أجل ذلك كان لا بدَّ من قوَّةٍ توجِّهُ هذه

(١) في ظلال القرآن (٦/٨٧٤ - ٨٧٥).

الصِّفات إلى الوجهة الصَّالحة. هذه القوَّةُ هي الدِّين والعقيدةُ الصَّحيحة التي فيها التَّنظيم لحياة الإنسان، والحدود الرَّادعة، والتَّرغيب والتَّرهيب، والثَّواب والعقاب، والقانون الأخلاقي الذي يدفع اختلاف المختلفين...

٤ – الزَّمان والمكان والأشخاص:

ولا يحدِّد السِّياقُ القرآني غالبًا لا زمانَ ولا مكانَ ولا أسماء القصَّة؛ لأنَّ القرآن الكريم لا يُعنى إلا بالمقاصد الشَّريفة، فالقرآن لا يُعنى غالبًا بتقرير زمانٍ ولا مكان، ولا تحديدِ أشخاصٍ بدقَّة؛ لأنَّ ذلك ليس له شأنٌ في تشكيل الحدث.

٥ – قياس الشَّبه:

ما ذكره ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (أحكام القرآن الكريم) من تفسير لقَوْله: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ حيث قال: "فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى قِيَاسِ الشَّبَهِ"(١). وما ذكره ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (أحكام القرآن الكريم) مجملًا، ذكره مفصَّلًا في (المحصول)، حيث قال: "وأمَّا قياس الشَّبه فهو على ضربين: شبه خَلقي، وشبه حُكمي، فأمَّا (الشَّبه الخلقي) فكإجماع الصَّحابة على جزاء الحمامة بالشَّاة، والنَّعامة بالبدنة لما بينهما من تشابه الخلقة. وأمَّا (الشَّبه الحُكمي) كقول علمائنا في الدَّليل على أنَّ الوضوء يفتقر إلى النِّية خلافًا لأبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: طهارة حكميّة فافتقرت إلى النِّية كالتَّيمم. وقد اختلف النَّاس في (قياس الشَّبه)، فمنهم من نفاه، ومنهم من أثبته، ومنهم من فصله"(٢).

وقال في (العبادات): هي نوعٌ لا يجري فيها تعليل بحال، بل إنَّ (قياس الشَّبه) يدخلها كقول علمائنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في الوضوء: عبادة فافتقرت إلى النِّية كالصَّلاة...الخ(٣).

---

(١) أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (٢/٨٧).

(٢) بقليلٍ من التَّصرُّف عن (المحصول في أصول الفقه)، لابن العربي (١/١٢٦– ١٢٧).

(٣) بقليلٍ من التَّصرُّف عن (المصدر نفسه) (١/١٣٣).

وعلى أيَّة حال فإنَّ الخلافَ مبسوطٌ في (كتب أصول الفقه)، وما أردتُ الإشارة إليه هنا أنَّ من العلماء من استدلَّ على (قياس الشَّبه) من الآية السَّابقة كابن العربيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المالكيَّة، ونفاه غيره.

٦ – الاعتبار بقصص السَّابقين.

.....

الموضع الثَّاني: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود:٧٢]:

١ – ما يستفاد مما ولي المنادَى:

يخبرُ الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه وَهَبَ لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بعد أن طَعَن في السنِّ، وآيس هو وامرأته (سارة) من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فبشروهما بإسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فتعجَّبت المرأة من ذلك، وقالت: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود:٧٢ – ٧٣]، وبشروه مع وجوده بنبوَّته، وبأنَّ له نسلًا وعَقِبًا، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:١١٢]، وهذا أكمل في البشارة، وأعظم في النِّعمة، وقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١]، أي: ويولد لهذا المولود ولدٌ في حياتكما، فتقر أعينكما به كما قرَّت بوالده؛ فإنَّ الفرح بولد الولد شديدٌ لبقاء النَّسل والعَقِب، ولما كان ولد الشَّيخ والشَّيخة قد يتوهَّم أنَّه لا يعقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم (يعقوب)، الذي فيه اشتقاق العقب والذُّريَّة، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلى عبادة الله

عَزَّوَجَلَّ في الأرض، فعوَّضه الله عَزَّوَجَلَّ عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه، لتقرَّ بهم عينه[1]، أي: قالت: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟![2].

٢ – المراد من قولها: ﴿يَا وَيْلَتَى..﴾:

هذه الكلمة تقال عند الإيذان بورود الأمر العظيم. ولم تُرِد بها الدُّعاء على نفسها، وإنما هي كلمة تخفُّ على ألسنة النِّساء عند الأمر العجيب. وقولها: ﴿أَأَلِدُ﴾ استفهام تعجُّب[3].

٣ – التَّعقيب على قول أبي حيَّان والقاسمي رَحِمَهُمَا اللَّهُ: (الاستفهام هنا استفهام إنكارٍ وتعجُّب):

قال أبو حيَّان رَحِمَهُ اللَّهُ في (البحر المحيط)، حيث قال: "استفهمت –بقولها: أألد؟!– استفهامَ إنكارٍ وتعجُّب"[4].

أقول: المراد بالاستفهام هنا: التَّعجبُ من أمرٍ خارقٍ للعادة. ولم ترد بذلك الإنكار، ويدلُّ على هذا المعنى قولها: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾؛ لأنَّه من المستبعد أن تنكر على الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ما جاؤوا به من البشرى، وهي على يقين أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه شيءٌ، ولكنَّها تعجَّبت من ذلك الأمر لكونه مخالفًا للعادة والمألوف، فأنكرت عليها الملائكة تعجُّبَهَا؛ لأنَّها كانت في بيت الآيات، ومهبط المعجزات، والأمور الخارقةِ للعادات، فكان عليها أن تسبِّح الله عَزَّوَجَلَّ وتمجِّده مكان التَّعجب..

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٩٧)، القاسمي (٣/٣٦٢).

(٢) انظر: القرطبي (١٧/٤٧)، أبو السُّعود (٨/١٤٠)، الوجيز، للواحدي (ص:١٠٢٩)، زاد المسير (٨/٣٧)، روح المعاني (٢٧/١٣)، النُّكت والعيون (٢/٤٨٦)، المحرر الوجيز (٥/١٧٨)، تفسير ابن جزي (٢/٣٠٩)، فتح القدير (٢/٧٣٨)، البحر المحيط (٩/٥٥٧)، ابن عادل (١٨/٨٦).

(٣) زاد المسير (٢/٣٨٧)، وانظر: القرطبي (٤/٦٩)، تذكرة الأريب في تفسير الغريب (١/٢٥٢)، الوسيط، للواحدي (٢/٥٨٢).

(٤) البحر المحيط (٦/١٨٣).

وكلام أبي حيَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ موهمٌ في عطفه التَّعجب على الإنكار، والعطف يقتضي المغايرة، فكأنَّها أنكرت وتعجَّبت. ويرد ذلك الاعتراضُ بعينه على ما أورده القاسميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره) لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، أي: أتستبعدين من شأنه وقدرته خلق الولد من الهرمين؟![1].

وقد بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ ذلك الاستفهام لعجبها من ذلك الأمرِ الخارقِ للعادة، ويدلُّ له أيضًا وقوع مثله من نبيِّ الله زكريَّا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠].

٤ – دروسٌ للمخاطَبين:

وممَّا يستفاد أنَّ المرأة وبخاصّة العقيم يهتزُّ كيانها كلُّه لمثل هذه البشرى، وهو أمر عجيبٌ حقًّا. فالمرأة ينقطعُ طمثُها عادةً في سنٍّ معيَّنةٍ فلا تحمل. ولكن لا شيء – بالقياس إلى قدرة الله عَزَّوَجَلَّ– عجيبٌ، ولا عجبَ من أمر الله عَزَّوَجَلَّ. فالعادةُ حين تجري بأمرٍ لا يكون معنى هذا أنها سنَّة لا تتبدَّل. وعندما يشاء الله عَزَّوَجَلَّ لحكمة يريدها، وهي هنا رحمته بأهلِ هذا البيت وبركاته الموعودة للمؤمنين فيه يقع ما يخالف العادة، مع وقوعه وفق السُّنَّة الإلهيَّة التي لا نعلم حدودها، ولا نحكم عليها بما تجري به العادة في أمدٍ هو على كلِّ حال محدود، ونحن لا نستقرئ جميع الحوادث في الوجود. ومشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى طليقةٌ لا تتقيَّد هذه المشيئةُ بالنَّواميس. نعم إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يجري هذا الكون وفق النَّواميس التي قدرها له. ولكنَّ هذا شيءٌ والقول بتقيد إرادته بهذه النَّواميس بعد وجودها شيءٌ آخر![2].

---

(١) تفسير القاسمي (٤/٣٢٠).

(٢) بتصرُّفٍ عن (الظِّلال) (١٢/١٩١٢).

الموضع الثَّالث: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان:٢٨].

١ – توضيح المعنى العام:

ويوم يعضُّ الظَّالم نفسه، المشرك بربِّه على يديه ندمًا وأسفًا على ما فرَّط في جنب الله عَزَّوَجَلَّ، وأوبق نفسه بالكفر به في طاعة خليله الذي صدَّه عن سبيل ربِّه عَزَّوَجَلَّ، يقول: يا ليتني اتخذت في الدُّنيا مع الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سبيلًا، يعني: طريقًا إلى النَّجاة من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ(١).

وفي الآية ما يفيد ندم الظَّالم الذي فارق طريق الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وما جاء به من عند الله عَزَّوَجَلَّ من الحقِّ، وندمه يوم القيامة حيثُ لا ينفعه النَّدَمُ. وفيه التَّحذير والتَّبصير للمخاطَبين..

٢ – دلالةُ (الالتزام العرفيِّ) أو (المعنى الكنائي):

وفي ذلك اليوم يعضُّ الظَّالم على يديه من فرط الحسرة، وعضُّ اليدين وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كناياتٌ عن الغيظ والحسرة؛ لأنَّها من روادفهما، فتذكر الرَّادفة، ويدلُّ بها على المردوف، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة، ويجد السَّامع عنده في نفسه من الرَّوعة ما لا يجده عند لفظ المكنَّى عنه(٢).

أقول: ويمكن أن نطلق على هذه الدِّلالة أنها من دلالات (الالتزام العرفي).

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (١٩/٢٦٢).

(٢) تفسير أبي السُّعود (٦/٢١٣)، تفسير البيضاوي (٤/١٢٢)، المحرر الوجيز (٤/٢٠٨)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٦/٤١٩)، البحر المحيط (٨/١٠١).

أمَّا دلالة الالتزام[1] فهي دلالة اللَّفظ على أمرٍ خارجٍ عن معناه لازمٍ له كدلالة السَّقف على جدار أو عمود يحمله، ودلالة الإنسان على الضَّاحك الخارج عن معناه، ولكنَّه لازم له.

ومن الكلام العربي: قولهم: (طويلُ النِّجَادِ)، وقولهم: (كثيرُ الرَّماد). فإنَّ قولهم: (طويل النِّجَادِ)[2]، ملزوم لزم منه طول صاحبه. تريد بهذا التَّركيب أنَّه شجاعٌ عظيم، فعدلت عن التَّصريح بهذه الصِّفة، إلى الإشارة إليها بشيءٍ ترتَّب عليه ولزمه؛ لأنَّه يلزم من طول (حمالةِ السَّيفِ) طولُ صاحبه، ويلزم من طول الجسمِ الشَّجاعةُ عادةً، فالمراد طولُ قامته، وإنْ لم يكن له نجادٌ، ومع ذلك يصحُّ أن يراد المعنى الحقيقي. ومن هنا يعلَمُ أنَّ الفرقَ بين قرينة المجاز وقرينة الكناية بأنَّ قرينة المجاز مانعةٌ من إرادة المعنى الأصليِّ، وقرينةُ الكنايةِ غير مانعةٍ من إرادة المعنى الأصليِّ[3]. وقولهم: (كثير الرَّماد)، يستدلُّون

---

(١) انظر: نهاية السُّول (١/١٧٤)، الإحكام، للآمدي (١/٣٦)، البحر المحيط في أصول الفقه (١/٤١٧)، التَّحبير (١/٣١٩)، حاشية العطَّار (١/٣١٣)، شرح التَّلويح على التَّوضيح (١/٢٤٥)، مختصر المعاني (ص:١٧٥).

(٢) النِّجَاد: حمالة السَّيف، وهو هنا كناية عن طول قامته.

(٣) (الكِنايةُ: لفظٌ أُريدَ به لازمُ معناه مع جوازِ إرادتِه)، أي: ذلك المعنى، (معه)، أي: لازمه كلفظ: طويل النجاد، المراد به: طول القامة، ويجوز أن يراد به حقيقة طول النجاد، أي: حمائل السيف أيضًا، (وبِهِ تُفارِقُ المجازَ)، فإنه لا يجوز فيه إرادة المعنى الحقيقي للقرينة المانعة من إرادته. من تحقيقنا لكتاب إتمام الدراية (٢/٢١٦). الفرق بين المجاز والكناية: يظهر من وجهين: أحدهما: أن الكناية لا تنافي إرادة الحقيقة بلفظها، فلا يتمنع في قولك: فلان طويل النجاد، أن تريد: طول نجاده، من غير ارتكاب تأويل مع إرادة طول قامته، وفي قولك: (فلانة نئومة الضحى) أن تريد أنها تنام ضحى لا عن تأويل يرتكب في ذلك مع إرادة كونها مخدومة مرفهة، والمجاز ينافي ذلك، فلا يصح في نحو: (رعينا الغيث) أن تريد: معنى الغيث، وفي نحو قولك: (في الحمام أسد) أن تريد: معنى الأسد من غير تأويل، وأنى والمجاز ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة كما عرفت وملزوم معاند الشيء معاند لذلك الشيء. والثاني: أن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم على الملزوم ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم على اللازم ..انظر: مفتاح العلوم (١/٤٠٣). "الكناية من ألطف أساليب البلاغة وأدقها، وهي أبلغ من الحقيقة والتصريح؛ لأن الانتقال فيها يكون من الملزوم إلى اللازم فهو كالدعوى ببينة، فكأنك تقول في زيد كثير الرماد: زيد كريم؛ لأنه كثير الرماد، وكثرته تستلزم كذا..الخ، كيف لا وأنها تمكن الإنسان من التعبير عن أمور كثيرة يتحاشى الإفصاح بذكرها، إما=

بذلك على الجود والكرم؛ لأنَّ كثرةَ الرَّمادِ تدلُّ على كثرة الطَّبخ، وهذه تدلُّ على كثرةِ الآكلين، وكثرةُ الآكلينَ تدلُّ على الجود. وكلُّ هذه (لوازم عرفيَّة لا عقليّة). لكن الدِّلالة على اللاَّزم تسمَّى التزامًا إن التُزم ذلك بالعقل، أي: في الذِّهن بأن لزم من تصوُّر الملزوم في الذِّهن تصوُّر ذلك اللاَّزم فيه سواء لزم ذلك في الخارج كدلالة الأربعة على الزَّوجية، أم لم يلزمه في الخارج، بل كان منافيًا له فيه كالبصر للعمى، وخرج بقيد اللاَّزم له في الخارج فقط دون الذِّهن كالسَّواد للغراب، فلا يسمَّى دلالة لفظ (الغراب) على السَّواد دلالة التزام، لعدم لزوم السَّواد في العقل، وإن لزم في الخارج...

وهنا ينبغي التَّنبيه على أنَّه ليس من شرط (دلالة الالتزام) أن تكون ذهنيةً عقليّة فقط، بل قد تكون (دلالة الالتزام) دلالة (لزوم عرفي) أي: أنَّ العقل لا يحكم إلا بعد

=احترامًا للمخاطب أو للإبهام على السامعين، أو للنيل من خصمه، دون أن يدع له سبيلا عليه، أو لتنزيه الأذن عما تنبو عن سماعه ونحو ذلك من الأغراض واللطائف البلاغية". جواهر البلاغة (ص:٢١٠)، وفي (الإيضاح) (ص:٣١٠): "أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأن الاستعارة أبلغ من التصريح بالتشبيه، وأن التمثيل على سبيل الاستعارة أبلغ من التمثيل لا على سبيل الاستعارة، وأن الكناية أبلغ من الإفصاح بالذكر. قال الشيخ عبد القاهر: ليس ذلك؛ لأن الواحد من هذه الأمور يفيد زيادة في المعنى نفسه لا يفيدها خلافه بل لأنه يفيد تأكيدًا لإثبات المعنى لا يفيده خلافه، فليست فضيلة قولنا: (رأيت أسدًا) على قولنا: (رأيت رجلًا) هو والأسد سواء في الشجاعة أن الأول أفاد زيادة في مساواته للأسد في الشجاعة لم يفده الثاني، بل هي أن الأول أفاد تأكيدًا لإثبات تلك المساواة له لم يفده الثاني. وليست فضيلة قولنا: (كثير الرماد) على قولنا: (كثير القرى) أن الأول أفاد زيادة لقراه لم يفدها الثاني، بل هي أن الأول أفاد تأكيدًا لإثبات كثرة القرى له لم يفده الثاني. والسبب في ذلك أن الانتقال في الجميع من الملزوم إلى اللازم فيكون إثبات المعنى به كدعوى الشيء ببينة، ولا شك أن دعوى الشيء ببينة أبلغ في إثباته من دعواه بلا بينة، ولقائل أن يقول: قد تقدم أن الاستعارة أصلها التشبيه وأن الأصل في وجه الشبه أن يكون الشبه به أتم منه في المشبه وأظهر. فقولنا: رأيت أسدًا يفيد للمرء شجاعة أتم مما يفيدها قولنا: رأيت رجلا كالأسد؛ لأن الأول يفيد شجاعة الأسد، والثاني شجاعة دون شجاعة الأسد، ويمكن أن يجاب بحمل كلام الشيخ على أن السبب في كل صورة ليس هو ذلك لا أن ذلك ليس بسبب في شيء من الصور أصلًا". وانظر: بغية الإيضاح (٥٥٦/٣)، مختصر المعاني (ص:٢٦٣)، دلائل الإعجاز (ص:٦٩)، وانظر ذلك مفصلًا في (المطول شرح تلخيص المفتاح) (ص:٤١٤- ٤١٥)، وشروح التلخيص (٢٧٤/٤) فما بعد.

ملاحظة تكرار المشاهدة والتَّجربة التي دلَّ العرف على المعنى المراد، والتَّكرار على لزومها..وهذا كثيرٌ في القرآن والسنُّة، وكلُّ باب الكناية قائمٌ عليه. و(الملازمة العرفيَّة) هنا إنما حكم العقل بها بالنَّظر إلى السِّياق والسِّباق والقرائن التي ترجِّحُ الكناية على الحقيقة، فيحكم بالملازمة العرفيَّة، وذلك واضح...

٣ – ندم الكافر وحسرته يوم القيامة:

وندم الكافر يوم القيامة وحسرته الذي دلَّت عليه هذه الآية، جاء موضَّحًا في آياتٍ أُخَر، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:٥٤] الآية. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب وَجَعَلْنَا الأغلال فى أَعْنَاقِ الذين كَفَرُواْ﴾ [سبأ:٣٣] الآية. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ يا حسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١] الآية. و(الحسرة) أشدُّ النَّدامة. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الذينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، حيث يتمنَّى الكافر أن يكون آمن بالرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في دار الدُّنيا، واتَّخذ معه سبيلًا، أي: طريقًا إلى الجنَّة في قوله هنا: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٢٧] جاء موضحًا في آيات أخر كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب:٦٦]،..إلى غير ذلك.

٤ – الأخوَّة والصَّداقة:

الصداقة نوع من المحبة إلَّا أنها أخص منها، فهي المودة بعينها..وهي علاقة اجتماعية بين شخصين أو أكثر، تبنى على أساس من المودة والتعاون بينهم، وتبدأ من انفعال عاطفي هادئ، وتنتهي إلى أن تستحوذ على النفس، وتؤثر في السلوك.

والصداقة إذا كانت مرتبطة بالعقيدة فإنها تثمر ثمارًا طيبة، وترقى إلى محبة منبثقة من العقيدة، متأثرة بأخلاقها وأدبياتها..فهي محبة خالصة لله عَزَّوَجَلَّ.

وقد يكون للصداقة من الأثر في المنهج والسلوك ما يفوق أيَّ عاطفة أخرى، فإن كان الصديق صالحًا كريم الخلق غدا القرين بعد المخالطة نظيرًا له في الصلاح والكرم، وإن كان سيء الخلق لئيمًا، اقتفى أثره، وسار على نهجه.

قال الشاعر:

(عن المرء لا تَسْأَلْ وسَلْ عن قَرِينه***فكُلُّ قرينٍ بالمقارِنِ يقتدي)[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الطوية إلى النصيحة"[2].

ولقد حذر الله عَزَّوَجَلَّ من صحبة أهل الشر والفساد، وأمر بصحبة أهل الفضل والرشاد والصلاح، فقال عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، وقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

وفي الحديث: ((**لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلَّا تقي**))[3].

وأخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن ندم أهل النار؛ بسبب صحبتهم لأهل الفساد، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٨]. فهذا تنفير من صحبة أهل السوء والباطل.

---

(١) ديوان طرفة بن العبد (ص:٣٢).

(٢) مدارج السالكين (٣/٣٢٢).

(٣) أخرجه ابن المبارك [٣٦٤]، والطيالسي [٢٢١٣]، وأحمد [١١٣٥٥]، والدارمي [٢٠٥٧]، وأبو داود [٤٨٣٢]، والترمذي [٢٣٩٥]، وقال: "حسن". كما أخرجه: أبو يعلى [١٣١٥]، وابن حبان [٥٥٤]، والحاكم [٧١٦٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣٨٢].

والحاصل أن صحبة أهل الباطل تورد صاحبها المهالك، وفي المقابل فإن صحبة أرباب العزائم والهمم، ومشاركة المجدين تبعث في النفس الهمة، وتولد الحرارة والشوق؛ لتقليدهم والتشبه بهم، وهي من أسباب النجاة والرفعة، كما أن صحبة أهل الباطل تؤثر في الصد عن الحق.

والصداقة التي تدوم وتثمر ثمارًا طيبة إنما تبنى على المحبة والصدق والإخلاص، وإن لهذه المحبة مقتضيات تقدم بيانها تُحَفِّزُ على المحبة الصادقة.

والأخوَّة الحقيقيَّة هي التي تقوم على الإيمان والمحبة في الله عَزَّوَجَلَّ ولله، وليس من أجل منفعةٍ دنيويَّة، أو مصلحةٍ شخصيَّة، أو عصبيَّة قبليَّة، أو غير ذلك من الماديَّات، فما كان لله عَزَّوَجَلَّ دام واتَّصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل.

وقد قيل: إنَّ الكلمة منفردة وحيدة لا تعدو أن تكون رسمًا، قد تُفهمك معنى، ولكن فيضَ معانيها ، وجمال قدرها لا يدرك إلَّا باتساقها مع غيرها من الكلمات، وكذلك هو حال المؤمن مع إخوانه وأحبابه..-كما تقدم-.

"فإن صفا لك أخ فكن به أشد ضنًا منك بنفائس أموالك، ثم لا يزهدنك فيه أن ترى خلقًا أو خلقين تكرههما؛ فإن نفسك التي هي أخص النفوس بك لا تعطيك المقادة في كل ما تريد، فكيف بنفس غيرك؟ وبحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره"[1].

ثامنًا: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ [الأنعام:١٢٨]:

وقد سبقَ ما يتعلَّقُ بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءات العامَّة).

تاسعًا: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾ [الأنعام:١٣٠]:

وقد سبقَ ما يتعلَّقُ بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءات العامَّة).

(١) رسائل الجاحظ (٤/٧٨).

عاشرًا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف:٢٦]:

وقد سبقَ ما يتعلَّقُ بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءات العامَّة)، [الصافات:٥١– ٥٧].

الحادي عشر: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ [هود:٤٢]:

١ – مواضع ورود هذه الصِّيغة:

الموضع الأوَّل: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود:٤٢].

الموضع الثَّاني: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥].

الموضع الثَّالث: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ [لقمان:١٣].

الموضع الرَّابع: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ [لقمان:١٦].

الموضع الخامس: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ [لقمان:١٧].

الموضع السَّادس: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢].

٢ – القراءات:

وفي هذه الصِّيغة اختلافٌ بين القُرَّاء، وهذا الخلاف قد ذكره بعض المفسِّرين، فقد اختلف في: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ في الآيات السَّابقة، أعني في الآية التي في (سورة هود)، والتي جاء ذكرها في موضع واحد، وفي (سورة يوسف) في موضع واحد، و(سورة لقمان) في ثلاثة مواضع، وفي (الصَّافات) في موضع. "فحفصٌ –بفتح الياء– في (الستَّة)[1]؛ ذلك لأنَّ أصل ابن: (بنو) صغر على (بنيو) فاجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسُّكون

(١) أي: في المواضع (الستَّة) الآنفة الذِّكر.

قلبت الواو ياء، وأدغمت فيها، ثمَّ لحقها (ياء الإضافة). فاستثقل اجتماعها مع الكسرة فقلبت ألفًا، ثمَّ حذفت الألف اجتزاء عنها بالفتحة.

وقرأ أبو بكر[1] هنا كذلك بالفتح. وقرأ ابن كثير الأوَّل من (لقمان): ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ بسكون الياء مخفَّفة، واختلف عنه في الأخير منها..﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ فرواه عنه البزيُّ كحفص، ورواه عنه قنبل بالتَّخفيف مع السُّكون كالأوَّل، وافقه ابن محيصن على التَّخفيف فيهما. ولا خلاف عن ابن كثير في كسر الياء مشدَّدة في الأوسط من (لقمان) ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾، وبه قرأ الباقون في (الستَّة). وأدغم باء ﴿ارْكَبْ﴾ في ميم ﴿مَعَنَا﴾ أبو عمرو والكسائيُّ ويعقوب. واختلف عن ابن كثير وعاصم وقالون، وخلَّاد.

والوجهان صحيحان عن كلٍّ منهم. والباقون بالإظهار"[2].

ويقول العلامة محمد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾: "النِّداء مع حضور المخاطب مستعمل في طلب إحضار الذِّهن اهتماما بالغرض المخاطب فيه. و﴿بُنَيِّ﴾ -بكسر الياء المشدَّدة- تصغير (ابن) مع إضافته إلى (ياء المتكلِّم)، وأصله: (بُنَيْوي) أو (بُنَيْيي) على الخلاف في أنَّ

---

(١) هو شعبة بن عياش الكوفي المقرئ.

(٢) إتحاف فضلاء البشر (٤٥٥/١)، وانظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم (٥٢٦/٣). النَّشر (٣٢٥/٢). وفي (زاد المسير): قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ "قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائيُّ: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ﴾ مضافة، بكسر الياء. وروى أبو بكر عن عاصم (يا بنيَ) - مفتوحة الياء- ها هنا، وباقي القرآن مكسورة. وروى حفص عنه بالفتح في كلِّ القرآن: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ إذا كان واحدًا. قال النَّحويون: الأصل في ﴿بُنَيَّ﴾ ثلاث ياءات، ياء التَّصغير، وياء بعدها هي لام الفعل، وياء بعد لام الفعل هي ياء الإضافة. فمن قرأ: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ أراد: يا بنيي، فحذف ياء الإضافة، وترك الكسرة تدلُّ عليها، كما يقال: يا غلام أقبل. ومن فتح الياء، أبدل من كسرة لام الفعل فتحة؛ استثقالا لاجتماع الياءات مع الكسرة، فانقلبت ياء الإضافة ألفًا، ثمَّ حذفت الألف كما تحذف الياء، فبقيت الفتحة على حالها. وقيل: إن المعنى: يا بني آمن واركب معنا". زاد المسير (٣٧٦/٢)، وانظر: تفسير القرطبي (٣٩/٩)، المحرَّر الوجيز (١٧٤/٣)، الحجَّة في القراءات السَّبع (١٨٧/١).

(لام ابن) الملتزمَ عدمُ ظهورها هي واو أم ياء. وعلى كلا التَّقديرين فإنّها أدغمت فيها (ياء التَّصغير) بعد قلب الواو ياءً لتقارب الياء والواو، أو لتمَاثلهما فصار (بنَيّي). وقد اجتمع ثلاث ياءات فلزم حذف واحدة منها فحذفت ياء المتكلم لزوما وألقيت الكسرة التي اجتلبت لأجلها على (ياء التَّصغير) دلالة على الياء المحذوفة. وحذفُ (ياء المتكلِّم) من المنادى المضاف شائع، وبخاصّة إذا كان في إبقائها ثقلٌ كما هنا؛ لأنَّ التقاء ياءات ثلاث فيه ثقل. وهذا التّصغير كناية عن تحبيب وشفقة. نزل الكبير منزلة الصَّغير؛ لأنّ شأن الصَّغير أن يحب ويشفق عليه. وفي ذلك كناية عن إمحاض النُّصح له"[1].

٣ – ما يستفاد من النِّداءات بهذه الصِّيغة:

الحاصلُ أنَّ النِّداءات السَّابقة بهذه الصِّيغة فيها النُّصح والتَّحبب والشَّفقة والعاطفة، فما يريد الوالد لولده إلا الخير، وفيها امتثال أمرِ الله عَزَّوَجَلَّ كما في نداء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنه.

ففي النِّداء الأوَّل –نداء نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنه– يهتف بولده الشَّارد حتَّى لا ينخرطَ في سلك الكافرين المخالفين لأمرِ الله عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّ البنوَّة العاقَّة لا تحفل بالأبوَّة الملهوفة، ولا تقدِّر مدى الهول، وما يحدق بها من جرَّاء مخالفة أمر الله عَزَّوَجَلَّ، فيأتي النُّصح والشَّفقة من الأبوَّة المدركة لحقيقة الهول، كما أنَّ في النِّداء ما يدلُّ على أنَّ الوشيجة التي يجتمع عليها النَّاس في هذا الدِّين تتميَّز عن وشيجة الدَّم والنَّسب والقوم والعشيرة واللَّون واللُّغة والجنس والعنصر والحرفة والطَّبقة، فإنَّ هذه الوشائج قد توجد أو يوجد بعضها ثمَّ تنقطع، فعلم أنَّ البنوَّة أو الأخوَّة في الدِّين أقوى من البنوَّة والأخوة في النَّسب؛ لأنها قد تنقطع بمخالفة الدِّين، وأمَّا البنوَّة أو الأخوَّة في الدِّين فلا تنقطع بمخالفة النَّسب.

ولكن ماذا كانت النَّتيجة بعد هذا النِّداء وهذا النُّصح؟

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢١٣/١٢). وانظر: الحجَّة في القراءات السَّبع (٢٨٤/١– ٢٨٥). انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم (٥٢٦/٣)، المقتضب (٢٤٩/٤)، البحر المحيط (٢٢٦/٥)، البيان في غريب إعراب القرآن الكريم (١٤/٢–١٥)، الفريد (٦٢٨/٢-٦٢٩).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود:٤٣].

حال الموج بين الولد العاقِّ، والوالد الرَّحيم، فكان الولد من المغرقين.

وفي الموضع الثَّاني من هذه الصِّيغة من النِّداء نداء يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتشترك رؤيا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، مع رؤيا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -التي ستأتي- في كون رؤيا الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ حقٌّ.

وفي نداء يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما يدلُّ على أنَّ يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علم أنَّ الله وَجَلَّ سيصطفي يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للنُّبوَّة، وينعم عليه بشرف الدَّارين، فخاف عليه حَسَد الإخوة؛ ولهذا نصحه بأن لا يقصَّ رؤياه على إخوته حتَّى لا يكون للشَّيطان مدخلٌ إلى نفوسهم فيدبِّروا ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أمرًا يسوؤه..، وإنَّ الشَّيطان للإنسان عدوٌّ مبين يوغر صدور النَّاس بعضهم على بعض، ويزيِّنُ لهم الشَّر، ولكلِّ نعمةٍ حاسد، ولا نعمة أعظم من هذه النِّعمة، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد.

وفي نداء لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنه الموعظة والعاطفة والنُّصح والتَّوجيه والإرشاد، ينهى ابنه عن الشِّرك، ويعلِّلُ ذلك بأنَّه ظلمٌ عظيم، ويؤكِّد هذه الحقيقة مرَّتين، مرَّة بتقديم النَّهي، وفصل علَّته، ومرَّة بـ (إنَّ) و(اللام)، وهذه النَّصيحة هي الحقيقة الخالدة التي دعا إليها جميعُ الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، والتي يجب أن تتحقَّق في كلِّ مخاطب، ويعمل كلُّ داعيةٍ على غرسها في نفوس السَّامعين..

وفي قوله: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ مقتضى ذلك الإشعار بوقوع الجزاء على جزئيَّات الأعمال، وأنَّه لا يفوت الله عَزَّوَجَلَّ عملٌ، وذلك يصوِّر عظمة الله عَزَّوَجَلَّ ودقَّته وعدله، وقضاءه بالقسط..قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، والله عَزَّوَجَلَّ عالم البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار. قال الله

عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]. وفي ذلك الحثُّ على مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ، والعمل بطاعته، والتَّرهيب من عمل القبيح قلَّ أو كثر.

وأمر لقمان عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ابنه بأداء الصَّلاة تامّة بأركانها وشروطها وواجباتها؛ لأنَّها عماد الدِّين، وأكبر العبادات البدنيَّة، ولذلك وصَّاه بأعظم الطَّاعات..

ونداء إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لابنه عَلَيْهِٱلسَّلَامُ نداء شفقة وترحُّم..، وتنفيذ لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وفي ذلك دلالة على أنَّ الوحي يأتي من الله عَزَّوَجَلَّ إلى الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ في اليقظة والمنام، وكان الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: ((**تَنَامُ عَيني ولا يَنَامُ قَلْبي**))[1]، فما كان منهما إلا الثَّبات والصَّبر فلا يتردَّد في التَّضحية بفلذة كبده، ويمضي في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وما كان من الابن إلا الطَّاعة والتَّسليم والرِّضا بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره..، فماذا كان بعد ذلك من أمر؟ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات:١٠٧].

الثاني عشر: ﴿يَا أَبَتِ﴾ [يوسف:٤]:

١ – مواضع ورود هذه الصِّيغة:

أما مواضع ورود هذه الصِّيغة فهي (ثمانية) على النَّحو التَّالي:

[يوسف:٤ – ١٠٠].

[مريم:٤٢ – ٤٣ – ٤٤ – ٤٥].

---

(١) الحديث مرويٌّ عن عبد الله بن مسلمة عن مالك عن سعيد المقبري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أنه سأل عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: كيف كانت صلاة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في رمضان؟ قالت: ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربع ركعات، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعا، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثا، فقلت: يا رسول الله تنام قبل أن توتر؟ قال: ((تنام عيني ولا ينام قلبي)). صحيح البخاري، [٣٥٦٩].

[القصص:٢٦].

[الصَّافات:١٠٢].

٢ – القراءات:

قرأ ابنُ عامر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ﴾ [يوسف:٤] -بفتح التَّاء- في جميع القرآن، وقرأ الباقون -بكسر التَّاء- على الإضافة إلى نفسه الأصل (يا أبي) فحذفت الياء؛ لأنَّ (ياء الإضافة) تحذف في النِّداء كما يحذف التَّنوين، وتبقى الكسرة تدلُّ على الياء، كما تقول: (ربِّ اغفر لي). وفي التَّنزيل: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى﴾ [يوسف:١٠١]، و﴿يَـٰقَوْمِ﴾ [البقرة:٥٤]، والأصل: (يا قومي) فحذفت الياء، وإنما تحذف في النِّداء؛ لأنَّ باب النِّداء باب التَّغيير والحذف. وأمَّا إدخال تاء التأنيث في (الأب) فقال قوم: إنما دخلت للمبالغة كما تقول: علَّامة ونسَّابة، فاجتمع (ياء المتكلِّم) والتَّاء التي للمبالغة فحذفوا الياء؛ لأنَّ الكسرة تدلُّ عليها.

وقال الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: إنَّ التَّاء كثرت ولزمت في (الأب) عوضًا عن (ياء الإضافة)؛ فلهذا كسرت التَّاء؛ لأنَّ الكسرة أخت الياء، ومن فتح فله وجهان:

أحدهما: أن يكون أراد (يا أبتا) فأبدل من (ياء الإضافة) ألفًا، ثمَّ حذف الألف كما تحذف الياء وتبقى الفتحة دالَّةً على الألف كما أنَّ الكسرة تدلُّ على الياء.

والوجه الآخر: أنَّه إنما فتح التَّاء؛ لأنَّ هذه التَّاء بدلٌ من (ياء المتكلِّم)، وأصل (ياء المتكلِّم) الفتح فتقول: (يا غلامي)، وإنما قلنا ذلك؛ لأنَّ الياء هو اسم، والاسم إذا كان على حرف واحد فأصله الحركة، فتكون الحركة تقويةً للاسم، فلمَّا كان أصل هذه الياء الفتحة كان الواجب أن تفتح؛ لأنَّها بدل من الحرف الذي هو أصله ليدلَّ على المبدل. وقف ابن كثير وابن عامر رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ ﴿يا أبـه﴾ على الهاء، وحجَّتُهما أنَّ التَّغييرات تكون في حال الوقف دون الإدراج فتقول: (رأيت زيدًا)، فتقف عليه بالألف، ووقف الباقون

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٣/٨٨– ٨٩).

بالتَّاء، وحجتهم أن هذه التاء بدل من الياء فكما أن الياء على صورة واحدة في الوصل والوقف فكذلك البدل يجب أن يكون مثل المبدل منه على صورة واحدة"[1].

٣ – إجمال الإعراب:

و﴿يَـا أَبَـتِ﴾ منادى مضاف منصوب بالفتحة المقدَّرة على ما قبل (ياء المتكلِّم) المبدلة تاء، ونقلت كسرة المناسبة إلى التَّاء، والتَّاء مضاف إليه[2].

والحاصل أنَّ ﴿يَـا أَبَـتِ﴾ ممَّا لم يستعملوه إلَّا في النِّداء إدخال تاء التَّأنيث على (الأب) و(الأم)، وهي عوض من (ياء المتكلِّم)؛ ولذلك لا يجوز الجمع بين التَّاء والياء.

جاء: (يا أبتا، يا أمتا) لتغيير لفظ الياء ألفًا، والكسرة التي على التَّاء هي الكسرة الـتي كانـت علـى البـاء في (أبي) فزحلقـت[3]، أي: إلى التَّـاء؛ إذ لا يكـون مـا قبـل تـاء التَّأنيث إلا مفتوحًا. وقيل: بل كسرت التَّاء لتدلَّ على الياء المحذوفة..

---

(١) حجَّة القراءات، لأبي زرعة (ص:٣٥٣ – ٣٥٤).

(٢) "قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَبَتِ﴾ -بكسر التَّاء- على إرادة النَّفس، والأصل (يا أبي) فحذف (ياء النَّفس) اجتزاءً بالكسرة عنها، وجيء بهذه التَّاء عوضًا عنها مكسورة". الفريد (٢٥/٣). وفي (الفريد) كلامٌ مطوَّل في بيان هذه الكسرة فمن ذلك –وهو ما يوافق رأي الزَّمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الكشاف) (٣٠١/٢)- قال: "إنَّ هذه الكسرة هي التي كانت قبل الياء في قولك (يا أبي) قد زحلقت إلى التَّاء؛ إذ لا يكون ما قبل تاء التأنيث إلا مفتوحًا. وقيل: بل كسرت التَّاء لتدلَّ على الياء المحذوفة. وإنما تكون هذه التَّاء في النِّداء خاصَّة إذا أضيفت إلى نفسك، ولا يجمع بينهما لئلا يجمع بين العوض والمعوَّض منه..". انظر الفريد (٢٥/٣-٢٨)، الكشاف (٣٠١/٢).

(٣) انظر ذلك مفصَّلا في (الدُّر المصون) (١٥١/٤–١٥٢)، وانظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم (٥٢٤/٣-٥٢٥)، معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٨٨/٣–٩٠)، وانظر: الكتاب لسيبويه، (٢٠٩/٢–٢١٢)، أمالي الشَّجري (١٠٤/٢– ١٠٥).

الثالث عشر: ﴿يَا أَبَانَا﴾ [يوسف:١١]:

١ – مواضع ورود هذه الصِّيغة:

أما مواضع ورود هذه الصِّيغة فهي (ستَّة)، كلُّها في (سورة يوسف)، وهي في الآيات التَّالية: [١١ – ١٧– ٦٣ – ٦٥ – ٨١ – ٩٧].

٢ – ما يستفاد من النِّداء بهذه الصِّيغة:

ويقال في هذه الصِّيغة من النِّداء ما قيل في النِّداء من حيث معناه العامُّ، وما قيل في سابقتها من أنَّه نداءُ (تحبُّبٍ واستعطاف)..قال أبو السُّعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "خاطبوه بذلك؛ تحريكًا لسلسلة النَّسبِ بينه وبينهم وتذكيرًا لرابطة الأخوَّة بينهم وبين يوسفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ"(١).

"وابتداء الكلام مع أبيهم بقولهم: ﴿يَا أَبَانَا﴾ يقضي أنَّ تلك عادتهم في خطاب الابن أباه"(٢).

والحاصل أنَّهم خاطبوه بهذا اللَّفظ المذكِّر بما بينه وبينهم من آصرةٍ وقرابة.

ثمَّ يختلف الطَّلب، ويعلم بالنَّظر فيما ولي المنادَى.

---

(١) تفسير أبي السُّعود (٤/ ٢٥٧)، روح المعاني (١٢/ ١٩٣).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (١٢/ ٢٢٧).

الرابع عشر: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾:

١ – ورود هذه الصِّيغة:

أما ورود هذه الصِّيغة ففي موضعين: [يوسف:٣٩]، [يوسف:٤١].

قوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ في موضعين الأوَّل منهما ذكره يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حين عدل عن جوابهما إلى دعائهما إلى الإيمان، والثَّاني حين دعياه إلى تعبير الرُّؤيا لهما..[(١)].

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

٢ – سبب المناداة هنا بعنوان الصُّحبة:

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾، "أي: (يا صاحبي فيه) إلَّا أنَّه أضيف إلى الظَّرف توسُّعًا كما في قولهم: (يا سارق اللَّيلة أهلَ الدَّار)[(٢)]، ولعلَّه إنما ناداهما بعنوان الصُّحبة في مدار الأشجان، ودار الأحزان التي تصفو فيها المودَّة وتتمحَّض النَّصيحة ليقبلا عليه ويقبلا مقالته. ويجوز أن يراد بالصُّحبة السُّكنى كما يقال: (أصحاب النَّار)

---

(١) انظر: أسرار التَّكرار في القرآن الكريم، للكرماني (ص:١١٢).

(٢) والمعنى: (يا سارقي في اللَّيلة)، فأضاف (سَارقًا) إلى (الليلة)، ونصب (أهل الدار)، وكان بعض النَّحويِّين ينصب (اللَّيلة) ويخفض (أهل) فيقول: (يا سَارق الليلةَ أهلِ الدار) كما في (معاني القرآن الكريم)، للفرَّاء (٨٠/٢). "ولا يجوز (يا سارقَ الليلةَ أهلِ الدار) إلا في شعر كراهةَ أن يفصلوا بين الجار والمجرور". وانظر: تفسير القرطبي (٣٣٨/١٣)، البحر المديد (٥٩٧/٢)، المحرَّر الوجيز (٧٠/١)، البيضاوي (١٦٤/٣)، النسفي (٣٠/١)، تفسير أبي السُّعود (٢٧٨/٤)، الخازن (٢/ ٥٢٩)، السِّراج المنير (١٠٩/٢)، تفسير النَّيسابوري (٨٩/٤)، وينظر: المفصَّل في صنعة الإعراب (ص:٨٢)، شرح الرَّضي على الكافية (٢١٩/٢ – ٢٢٣)، إبراز المعاني (١١٦/٢)، شرح نهج البلاغة (٢٥٥/٧).

و(أصحاب الجنَّة) لملازمتهم لهما، والإضافة من باب إضافة الشَّيء إلى شبه المفعول عند أبي حيَّان[1]، وإلى المفعول عند غيره[2] ولا اتِّساع في ذلك. وقيل: بل هناك اتِّساع أيضًا، وأنَّه أضافهما إلى السِّجن دونه؛ لكونهما كافرين، وفيه نظر[3]، ولعلَّ في ندائهما بذلك على هذا الوجه حثًّا لهما على الإقرار بالحقِّ كأنَّه قال لهما: يا ساكني هذا المكان الشَّاق والمحلِّ الضَّنك إني ذاكرٌ لكم أمرًا فقولوا الحقَّ فيه ولا تزيغوا عن ذلك، فأنتم تحت شدَّة، ولا ينبغي لمن كان كذلك أن يزيغ عن الحقِّ، وإنما حمل الصَّاحب على ما سمعت؛ لأنَّ صاحب السِّجن في الاستعمال المشهور السَّجان أو الملك، والنِّداء بـ (يا) بناءًا على الشَّائع من أنها للبعيد للإشارة إلى غفلتهما وهيمانهما في أودية الضَّلال.

وقد تلطَّف عَلَيْهِ السَّلَامُ بهما في ردِّهما إلى الحقِّ، وإرشادهما إلى الهدى حيث أبرز لهما ما يدلُّ على بطلان ما هما عليه بصورة الاستفهام حتَّى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بإبطال ما ألفاه دهرًا طويلًا، ومضت عليه أسلافهما جيلًا فجيلًا، فقال: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ متعدِّدون متكثرون يستعبدكما منهم هذا وهذا، والكلام على ما صرَّح به أبو حيَّان[4] على حذف مضاف، أي: أعبادة أربابٍ متفرِّقين ﴿خَيْرٌ﴾ لكما ﴿أَمِ اللهُ﴾، أي: أم عبادة الله عَزَّوَجَلَّ ﴿الْوَاحِدُ﴾ المنفرد بالألوهيَّة ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يغالبه أحد عَزَّوَجَلَّ.."[5].

وفي كلام الزَّمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ في (الكشاف) زيادةٌ في التَّحقيق والإيضاح حيث يقول: في قوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾: "يريد: (يا صاحبي في السِّجن) فأضافهما إلى

---

(١) انظر: البحر المحيط (٥/ ٤٢٧)، روح المعاني (١٢/ ٢٤٣).

(٢) سبقت الإشارة إلى ذلك قريبًا.. أقول: والمفعول ما يتعدَّى إليه الفعل بذاته، وشبه المفعول ما يتعدَّى إليه الفعل بحرف الجرِّ. وعلى ذلك يكون التَّقدير: سَكَنَ في السِّجن، والتَّقدير الثَّاني: سَكَنَ السِّجن، فهو مسكون، ويرجع ذلك إلى (سكن) الذي يتعدَّى ولا يتعدَّى.

(٣) أقول: ووجه الاعتراض أنَّه ناداهما بعنوان الصُّحبة في السِّجن، وهو قدرٌ مشتركٌ بينه وبينهم، وإضافة الصُّحبة إلى السِّجن ليس فيها ما يميز بين من كان مؤمنًا أو من كان كافرًا..

(٤) البحر المحيط (٢٧٨/٦)، وانظر: تفسير الطبري (١٦/ ١٠٤).

(٥) روح المعاني (٢٤٣/١٢).

السِّجن كما تقول: (يا سارق اللَّيلة) فكما أنَّ اللَّيلة مسروق فيها غير مسروقة، فكذلك السِّجن مصحوب فيه غير مصحوب، وإنما المصحوب غيره، وهو يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ. ونحوه قولك لصاحبيك: (يا صاحبي الصِّدق) فتضيفهما إلى الصِّدق ولا تريد أنهما صحبا الصِّدق، ولكن كما تقول: (رجلا صدق) [بالتَّثنية] وسميتهما صاحبين؛ لأنهما صحباك"[1].

أقول: ولعلَّ هذا هو الأقرب، والأخفُّ مؤونة، وهو من المعاني المستعملة بكثرة.

٣ – سبب التَّعيين:

وسبب التعيين أنهما استفتياه في بين السَّاكنين. ثمَّ أنكر عليهم عبادة الأصنام..[2].

٤ – حقيقة الصَّاحب:

و(الصَّاحب) "حقيقته الذي يلازم غيره في حالة من سفرٍ أو نحوه[3]، وسمِّيت الزَّوجة صاحبة، ويطلق مجازًا على الذي له مع غيره حادث عظيم وخبر، تنزيلًا لملازمة الذكِّر منزلةَ ملازمة الذات.."[4].

---

(١) الكشاف (٣٢١/٢).

(٢) انظر: تفسير النَّيسابوري (غرائب القرآن) (٨٩/٤).

(٣) ولذلك قيل: سمِّي السِّفر سفرًا؛ لأنَّه يسفر عن أخلاق الرِّجال، أي: يكشف. انظر: الزَّاهر (٢٠٦/٢)، تفسير الرَّازي (١٠٠/٧)، ابن عادل (٥٠٦/٤).

(٤) التَّحرير والتَّنوير (١٩٤/٩).

٥ – الدُّروس المستفادة:

لقد هزَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الكلمات القليلة قوائم الشِّرك، وأتى على قواعده بأسلوبٍ فيه ما فيه من الحكمة وإقامة الحُجَّة..وقد استفاد من صفةِ الصُّحبة المؤنسة واتَّخذها طريقًا ومدخلًا إلى صلب الدَّعوة..فكذلك ينبغي على كلِّ داعية ماهرٍ أن يتحيَّن الفرص ليضع بذور دعوته..وأن يدعو إلى الله عَزَّوَجَلَّ بحكمةٍ، وأن يقدِّمَ الهداية والإرشاد والموعظة والنَّصيحة.

كما هو حال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث لم يدعهما مباشرة، وإنَّما عرض دعوته في أسلوبٍ حواريٍّ موضوعيٍّ يخاطبُ فيهما العقلَ والعاطفة، ويهدم الاعتقادَ الفاسد، حيث قال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، وهو في ظاهره سؤال مستفهمٍ، ولكنَّه في حقيقته هجومٌ على الفطرة الزَّائغة. يحقُّ الحقَّ ويبطلُ الباطل، فإنَّ الفطرة التي يولد عليها الإنسان لا تعرف إلَّا إلهًا واحدًا. وقد نفى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في كلماته القليلة تعدُّدَ الإلهة، وأثبت وحدانيَّة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ كثرة الإلهة توجب الخلل والفساد...

وما شقيت البشريَّة قطُّ شقاءها بتعدُّد الأرباب وتفرُّقهم، وتوزُّع العباد بين أهوائهم وتنازعهم.. فهذه الأرباب الأرضيَّة التي يعطيها سلطانًا تحت تأثير الوهم والخرافة والأسطورة، أو تحت تأثير القهر أو الخداع أو الدِّعاية! هذه الأرباب الأرضيَّة لا تملك لحظة أن تتخلص من أهوائها، ومن حرصها على ذواتها وبقائها، ومن الرَّغبة الملحَّة في استبقاء سلطانها وتقويته، وفي تدمير كلِّ القوى والطَّاقات التي تهدِّد ذلك السُّلطان من قريبٍ أو من بعيد، وفي تسخير تلك القوى والطَّاقات في تمجيدها وخدمتها!

والله عَزَّوَجَلَّ الواحدُ القهَّار غنيٌّ عن العالمين، فهو عَزَّوَجَلَّ لا يريد منهم إلا التَّقوى والصَّلاح والعمل والعمارة وفق منهجه فيعدُّ لهم هذا عبادة.

ومن الدُّروس المستفادة من قوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ..﴾.. أنَّه لم "يعيِّن من هو صاحب البُشْرَى،

ومن هو صاحب المصير السَّيئ تلطُّفًا وتحرُّجًا من المواجهة بالشَّر والسُّوء. ولكنَّه أكد لهما الأمر واثقًا من العلم الذي وهبه الله عَزَّوَجَلَّ"[1].

ومن الملاحظ أنَّه قد دعاهما قبل تعبير الرُّؤيا إلى الإيمان بربِّه عَزَّوَجَلَّ..

وقال لهما قبل ذلك: ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ أي: في الرُّؤيا. ﴿إلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا﴾، يعني: التَّأويل ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف:٣٧-٣٨]. فبدأ يذكر ربَّه عَزَّوَجَلَّ فإن هذا ممَّا علَّمه ربُّه عَزَّوَجَلَّ له؛ لأنَّه ترك ملَّة قوم مشركين لا يؤمنون بالله عَزَّوَجَلَّ، وإن كانوا مقرِّين بالصَّانع، ولا يؤمنون بالآخرة، واتَّبع ملَّة آبائه أئمَّة المؤمنين، الذين جعلهم الله عَزَّوَجَلَّ أئمَّة يدعون بأمره -إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فذكر ربَّه عَزَّوَجَلَّ ثمَّ دعاهما إلى الإيمان بربِّه عَزَّوَجَلَّ.

"وقيل: إنما قدَّم هذا ليعلما ما خصَّه الله عَزَّوَجَلَّ من النُّبوَّة، وليقبلا إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وقد كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما بينهم قبل ذلك زمانًا، فلم يحك الله عَزَّوَجَلَّ عنه أنَّه ذكر لهم شيئًا من الدُّعاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ. وكانوا قومًا يعبدون الأوثان؛ وذلك لأنَّه لم يطمع منهم في الاستماع والقبول، فلمَّا رآهم مقبلين إليه، عارفين بإحسانه[2] أمل منهم القبول والاستماع، فقال: ﴿يَا صَاحِبَيْ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الآية. وهو من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾

---

(١) انظر: الظِّلال (١٩٩٢/١٢)، وانظر: (١٩٨٩/١٢-١٩٩١).

(٢) أي: إنَّ ظاهر القرآن الكريم يدلُّ على أنَّه لبث فيهم مدَّة عرفوا فيها إحسانه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ حكاية عنهما في خطابهما ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦] ورأى منها تجاوبًا وقبولا فعرض عليهما دعوته..

[النحل:١٢٥]، وترقّب وقت الاستماع والقبول من الدُّعاء إلى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ بالحكمة، وإنما حكى الله عَزَّوَجَلَّ ذلك لنا لنقتدي به فيه"[(١)].

الخامس عشر: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤]:

١ – ورود هذه الصِّيغة:

أما ورود هذه الصِّيغة فقد وردت في موضع واحد من يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٢ – بيان المعنى:

أما المعنى فعن الضَّحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ قال: يا حزناه[(٢)].

وعن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ قال: (يا جزعا)...

وعن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (يا حزناه)[(٣)].

وقال الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأصل (يا أسفي)، فأبدل من الياء ألف؛ لخفَّة الفتحة"[(٤)].

---

(١) انظر: أحكام القرآن الكريم، للجصَّاص (٣٨٨/٤).

(٢) انظر: تفسير الضَّحاك (٤٧٦/١)، كتاب الهمِّ والحزن، لابن أبي الدُّنيا (٦٨/١)، تفسير الطَّبري (٢١٦/١٦)، تفسير ابن أبي حاتم (٢١٨٥/٧).

(٣) تفسير الطَّبري (٢١٦/١٦)، تفسير مجاهد (ص:٤٠٠)، الدُّر المنثور (٥٦٧/٤)، تفسير ابن أبي حاتم (٢١٨٥/٧)، فتح القدير (٧١/٣)، معاني القرآن، للنَّحاس (٤٥٢/٣)، القرطبي (٢٨٤/٩)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١٢٥/٣)، البغوي (٥٠٩/٢).

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (١٢٥/٣).

و(الأسف): أشدُّ الحزن على ما فات[1]. أضافه إلى نفسه، و(الألف) بدل من (ياء المتكلِّم) للتَّخفيف، والمعنى: (يا أسفى تعال فهذا أوانك). وقيل: الألف ألف النُّدبة، والهاء محذوفة، والمعوَّل عليه الأوَّل.

ولا يرد أنَّ هذا مناف لمنصب النُّبوَّة؛ إذ يقتضي ذلك معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، ومن عرفه سبحانه أحبَّه، ومن أحبَّه لم يتفرَّغْ قلبُه لحبِّ ما سواه لما قيل: إنَّ هذه[2] محبَّة طبيعيَّة، ولا تأبى الاجتماع مع حبِّه عَزَّوَجَلَّ[3].

"إنَّ مثل هذه المحبَّة الشَّديدة تزيل عن القلب الخواطر، ويكون صاحبها كثير الرُّجوع إليه عَزَّوَجَلَّ، كثير الدُّعاء والتَّضرع، فيصير ذلك سببًا لكمال الاستغراق.."[4].

وفي (البحر): "ونادى الأسف على سبيل المجاز على معنى: (هذا زمانك فاحضر). والظَّاهر أنَّه يضاف إلى (ياء المتكلِّم) قلبت ألفًا، كما قالوا: في (يا غلامي): (يا غلاما).

وقيل: هو على النُّدبة، وحذف الهاء التي للسَّكت"[5].

وحذف الهاء التي هي في النُّدبة علامة المبالغة في الحزن تجلُّدًا منه عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إذ كان قد ارتبط إلى الصَّبر الجميل.

وقيل: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَسَفَى﴾ نداء فيه استغاثة[6].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٢١٥)، روح المعاني (٣٩/١٣)، تفسير الرَّازي (١٨/ ٤٩٨)، القرطبي (٢٨٤/٩)، التِّبيان في تفسير غريب القرآن، للحياني (ص:٢٨٤)، غريب القرآن المسمَّى بنزهة القلوب (ص:٥١١)، البغوي (٢٣٥/٢)، ابن عادل (١٨٨/١١)، تفسير النيسابوري (١١٧/٤)، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٢٠٠/٥).

(٢) أي: محبَّة يعقوب ليوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

(٣) بقليل من التَّصرُّف عن (روح المعاني) (٣٩/١٣)، تفسير أبي السُّعود (٣٠١/٤)، وانظر: تفسير الرَّازي (٥٠١/١٨)، ابن عادل (١٩٦/١١).

(٤) روح المعاني (٣٩/١٣)، تفسير الرَّازي (٢٠٠/١٨).

(٥) البحر المحيط (٣١٤/٦).

(٦) انظر: المحرَّر الوجيز (٢٧٢/٣).

٣ – تجنيس التَّصريف:

قال الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والتَّجانس[١] بين لفظتي (الأسف) و(يوسف) مما يقع مطبوعًا غير مستعمل فيملح ويبدع، ونحوه: ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ﴾ [التوبة:٣٨]، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٦]، ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]، ﴿مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ﴾ [النمل:٢٢]"[٢].

وأيضًا كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ﴾ [فاطر:٤٢]، ومثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر:٧٥].

وفي (البحر): "يسمَّى هذا تجنيس التَّصريف[٣]، وهو أن تنفرد كلُّ كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف. وذكر يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما دهاه من أمر بنيامين، والقائل:

---

(١) الجناس، ويسمَّى أيضًا (التَّجنيس) في اللُّغة: المشاكلة والاتحاد في الجنس، يقال لغة: جانَسهُ، إذا شاكله، وإذا اشترك معه في جِنْسه، وجنس الشَّيء: أصله الذي اشْتُقَّ منه، وتَفَرَّع عنه، واتَّحَدَ معَه في صفاته العظمى التي تُقوم ذاته. وفي الاصطلاح: أن يتشابه اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى. وهو نوعان: تام: وهو ما اتفق فيه اللفظان في أمور أربعة هي: نوع الحروف، وشكلها، وعددها، وترتيبها. كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:٥٥]. وغير تام: وهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد من الأمور المتقدِّمة. انظر: الإيضاح في علوم البلاغة (ص:٣٥٤)، مختصر المعاني (ص:٢٨٨).

(٢) الكشاف (٣٣٨/٢)، البحر المحيط (٣١٤/٦)، ابن عادل (١٨٩/١١)، تفسير النَّسفي (١٢٩/٢)، تفسير النيسابوري (١١٧/٤)، تفسير أبي السعود (٣٠١/٤).

(٣) تجنيس التَّصريف كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٦]، وهو أن تنفرد كلُّ كلمة عن الأخرى بحرف فـ﴿يَنْهَوْنَ﴾ انفردت بالها، و﴿يَنْأَوْنَ﴾ انفردت بالهمزة. ومنه: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ﴾ [الكهف:١٠]، ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ [النمل:٢٢]، ﴿تَفْرَحُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر:٧٥]. البحر المحيط (٤٧٢/٤)، ابن عادل (٨٤/٨)، الدُّر المصون (٣٥/٣)، روح المعاني (١٨٧/١٩)، وانظر: خزانة الأدب (٧٣/١). وفي (التَّعريفات): تجنيس التَّصريف: هو اختلاف الكلمتين في إبدال حرف، إمَّا من مخرجه، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾. أو قريب منه كما بين: (المفيح)، و(المبيح). التَّعريفات، للجرجاني (ص:٧٥). وفي (التَّعاريف): تجنيس التصريف: اختلاف الكلمتين بإبدال حرف من حرف إمَّا من مخرجه نحو: ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية، أو قريب منه كما بين: (المصيخ) و(المسيخ). التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، للمناوي (ص:١٦٢).

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ﴾ [يوسف:٨٠] فقدانه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتأسَّف عليه وحده، ولم يتأسَّفْ عليهما؛ لأنَّه هو الذي لا يعلم أحيٌّ هو أم ميِّت؟ بخلاف أخوته؛ ولأنَّه كان أصل الرَّزايا عنده؛ إذ ترتبت عليه، وكان أحب أولاده إليه، وكان دائمًا يذكره ولا ينساه"[(١)].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَسَفَى﴾ الألف مبدلة من (ياء المتكلِّم)، والأصل: (أسفي) ففتحت الفاء، وصيِّرت الياء ألفًا ليكون الصَّوت بها أتمُّ، و﴿عَلَى﴾ متعلِّقة بـ: ﴿أَسَفَى﴾[(٢)].

و﴿يَا أَسَفَى﴾ منادى مضاف منصوب بالفتحة المقدَّرة على ما قبل (ياء المتكلِّم) المنقلبة ألفا، والجارُّ متعلِّق بحال من ﴿أَسَفَى﴾[(٣)].

٤ – إجمال ما يستفاد:

الفائدة الأولى: إنَّ الصَّبر الجميل عاقبته حميدة، والفرق بينه وبين الصَّبر العادي أنَّ الصَّبر الجميل الذي لا يبوح فيه صاحبه بالشَّكوى، بل يفوِّض أمره لله عَزَّوَجَلَّ.

الثانية: حسنُ الظَّنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ، وهذا من مقتضياتِ التَّوحيد، وعدم اليأس والقنوط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، يستفاد ذلك من قول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأولاه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، وقال أيضًا: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف:٨٣].

---

(١) البحر المحيط (٦/٣١٤).

(٢) التِّبيان في إعراب القرآن، للعكبري (٢/٥٨)، وانظر: الفريد (٣/٩٢– ٩٣).

(٣) وفي (الفريد): "أضاف (الأسف)، وهو أشدُّ الحزن والحسرة إلى نفسه مناديًا له، مقبلًا عليه: هَلُمَّ فهذا أوانك، فاستثقلت الكسرة على الفاء ففتحت، وأبدلت من الياء الألف، و﴿عَلَى﴾ من صلة ﴿أَسَفَى﴾". الفريد (٣/٩٢-٩٣).

الثالثة: أنَّ البكاء لا ينافي الصَّبر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾، فمن كثرة البكاء والدَّمع انقلب سوادُ عينيه بياضًا. وهناك فرقٌ بين البكاء وبين النِّياحة. فلا يجوز النَّدب ولا النِّياحة ولا شقُّ الثِّياب، ولا لطمُ الخدود، وكذلك لا يجوز الدُّعاء بالويل والثبور ونحوه.

و(النِّياحة): البكاءُ على الميِّت بصياحٍ وعويل، فهي رفعُ الصَّوت بالبكاء على الميِّت قصدًا، كنوح الحمام.

و(النَّدب): تعداد محاسن الميِّت.

والنِّياحة من أمر الجاهلية. وإنما كانت كذلك؛ لأنَّها لا تزيدُ النَّائح إلَّا شدّةً وحزنًا وعذابًا. وفيها السُّخطُ والاعتراض على قضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره. كما أنها تهيِّج أحزان غيره، والنِّياحة يشمل حكمها الرَّجلَ والمرأة، وفي الغالب وقوعها من النِّساء، ولهذا قال النَّبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((**النائحة إذا لم تتب قبل موتها تُقَامُ يوم القيامة وعليها سِرْبَالٌ من قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ من جَرَب**))[1]، أي: إن تابت قبل الموت، تاب الله عَزَّوَجَلَّ عليها. وظاهر الحديث أنَّ هذا الذَّنب لا تُكفِّرُه إلَّا التَّوبة، وأنَّ الحسنات لا تمحوه؛ لأنَّه من كبائر الذُّنوب، والكبائر لا تمحى بالحسنات، فلا يمحوها إلَّا التَّوبة.

ومع هذه المفاسد فإنَّ القضاء لا يردُّ، ولا يرفع ما نزل.

أمَّا البكاءُ فمن الممكن أن يكون رحمةً شفقة وغلبة نفس..

والفرق بينها وبين البكاء كبيرٌ ومبسوطٌ...في كتب (الفقه والفتاوى)[2].

---

(١) أخرجه مسلم [٩٣٤].

(٢) انظر: الشَّرح الكبير، لابن قدامة (٤٣٠/٢)، عمدة الأحكام (١٧٤/٢)، المبدع (٢/ ٢٨٩)، منار السَّبيل (١٧٣/١)، الرَّوض المربع (٣٥٨/١)، الكافي (٢٧٣/١)، كشَّاف القناع (١٦٣/٢)، فتاوى ابن تيمية (٣٨٢/٢٤)، (٣٠٧/٢٥ – ٣٠٨)، (١٦١/٢٨)، المغني (٢١٣/٢)، المهذَّب (١٣٩/١)، الإقناع (٢٠٨/١)، شرح ابن رسلان (١٣٦/١)، فتح الوهاب (١٧٧/١)، مغني المحتاج (٣٥٦/١)، المجموع (٢٧١/٥)، البحر الرَّائق (١٩٥/٢)، حاشية ابن عابدين (٢٣٩/٢)، فتح القدير، للكمال بن الهمام (١٢٨/٢)، (٤١١/٧)، بدائع الصَّنائع (١٢٨/٥)، التَّاج والإكليل (٢٣٥/٢)، مواهب الجليل (٢٣٥/٢)، التَّمهيد (٢٧٤/١٧–٢٨٠–٢٨٢– ٢٨٤)، الثَّمر الدَّاني (٢٦٦/١)، الدَّراري المضيَّة=

وما يجري في مجالس الوعظ من أمورٍ يعتقدُها العوامُّ والجُهَّالُ قُرْبَةً، وهي في حقيقتها من المنكرات. فمن ذلك أنَّ المقرئ يطربُ، ويخرج الألحان إلى الغناء، والواعظ ينشد أشعار الرِّثاء فيصفِّق هذا، ويقفز هذا، ويتمايل هذا، ويخرق ثوبه هذا، ويعتقدون أنَّ ذلك قربة، ولو أنَّهم أمروا بالصَّبر، وحثُّوا عليه لكان خيرًا لهم.

ومن الوعَّاظ من يتكلَّم على طريق المعرفة والمحبَّة، فترى من لا يعرف فرائض الصَّلاة يمزِّقُ أثوابه بدعوى محبَّة الله عَزَّوَجَلَّ، وقد لا يفقه ما يقال من الأشعار والقصائد، وما فيها المخالفات الشرعية، حتَّى إن كان ممَّا يحوي في طيَّاته: الشِّرك الصَّريح.

السادس عشر: ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾:

١ – ورود هذه الصِّيغة:

أما ورود هذه الصِّيغة ففي موضعين: [الكهف:٨٦]، [الكهف:٩٤].

٢ – الوحي إلى ذي القرنين:

وفي (البحر): "وظاهر قوله: ﴿قُلْنَا﴾[(١)] أنَّه أوحى الله عَزَّوَجَلَّ إليه على لسان ملك. وقيل: كلمه كفاحًا من غير رسول كما كلَّم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلى هذين القولين يكون نبيًّا. ويبعد ما قاله بعض المتأوِّلين: إنَّه إلهامٌ وإلقاء في روعه؛ لأنَّ مثل هذا التَّخيير لا يكون إلا بوحي؛ إذ التَّكاليف وإزهاق النُّفوس لا تتحقق بالإلهام إلا بالإعلام"[(٢)].

=(١٩٣/١)، السَّيل الجرَّار (٣٣٩/١)، قواعد الأحكام (١٨٧/٢)، معتصر المختصر (٢٨٢/٢)، الزَّاهر (١٣٥/١)، تحفة المحتاج (٦١٨/١)، خلاصة البدر المنير (٢٧٨/١)..وغيرها من الكتب ..

(١) تمام الآية: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف:٨٦].

(٢) البحر المحيط (٢٢١/٧)، وانظر: روح المعاني (٣٤/١٦)، وذكر الرَّازي رَحِمَهُ اللَّهُ الخلاف مفصَّلًا في (تفسيره): (٤٩٦/٢١).

أقول: لا يمنع أن يكون قد أعلمه بذلك نبيٌّ في زمانه، كما لا يمنع الوحي إليه؛ لأنَّ إرسال الملك أو الوحي إليه أو إلى غيره لا يقتضي ذلك النبوة، فليس من محظور في كونه نبيًّا، وهو أمرٌ مسكوتٌ عنه. وقد سبق بيان ذلك في (نداء من اختلف في نبوَّته).

أما القول بأنه كان إلهامًا فهو ضعيف، ويبعد قول من قال: إنه باجتهاده في شريعته الاجتهادَ المصيب -كما سيأتي-.

٣ - ما يستفاد مما ولي المنادَى:

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾، بالقتل على الكفر ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، أي: بالحمل على الإيمان والهدى، إمَّا أن تكفر فتعذبها، وإمَّا أن تؤمن فتحسن إليها، فعبَّر في التَّخيير بالمسبَّب عن السَّبب(١).

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، "معنى هذا: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ مكَّنه منهم، وحكَّمه فيهم، وأظفره بهم وخيَّره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منَّ أو فدى"(٢).

قال الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قيل: كيف فَهِمَ ذو القرنين منهم هذا الكلام بعد أن وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا﴾ [الكهف:٩٣]؛ والجواب أن نقول: (كاد) فيه قولان:

الأوَّل: أن إثباته نفي، ونفيه إثبات، فقوله: ﴿لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا﴾ لا يدلُّ على أنَّهم لا يفهمون شيئًا، بل يدلُّ على أنَّهم قد يفهمون على مشقَّةٍ وصعوبة.

والقول الثَّاني: أنَّ (كاد) معناه المقاربة، وعلى هذا القول فقوله: ﴿لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا﴾، أي: لا يعلمون وليس لهم قرب من أن يفقهوا. وعلى هذا القول فلا بدَّ

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢٢٢/٧)، المحرَّر الوجيز (٥٣٩/٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١٩٣/٥).

من إضمار، وهو أن يقال: لا يكادون يفهمونه إلَّا بعد تقريبٍ ومشقَّةٍ من إشارة ونحوها، وهذه الآية تصلح أن يحتج بها على صحَّةِ القول الأوَّل في تفسير (كاد)"[(١)].

وقيل: كلَّم عنهم مترجمٌ، ويدلُّ عليه قراءة ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، (قال الذين من دونهم يا ذا القرنين إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوج)[(٢)].

٤ – التعقيب على ما ذكره البقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أقول: ويستبعدُ ما ذكره البقاعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في (نظم الدُّرر) من أنَّ الأمر قد يكون باجتهاده في شريعته الاجتهادَ المصيب[(٣)]، وذلك لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْنَا﴾ وهو صريحٌ، ولا حاجة تقتضي العدولَ عنه؛ ولأنَّ مثل هذا التَّخيير لا يكون إلا بوحي؛ إذ التَّكاليف وإزهاق النُّفوس لا تتحقَّق بالاجتهاد من غير نصٍّ صريح.

والحاصل أنَّهم "أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إيَّاه، حتَّى يجعل بينهم وبينهم سدًّا. فقال ذو القرنين بعفَّةٍ وديانةٍ وصلاحٍ وقصدٍ للخيرِ: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف:٩٥][(٤)]، أي: إنَّ الذي أعطاني الله عَزَّوَجَلَّ من الملك والتَّمكين خيرٌ لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل:٣٦]، وهكذا.. قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه، ولكن ساعدوني ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أي: بعملكم وآلات البناء ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾"[(٥)].

---

(١) تفسير الرَّازي (٢١/٤٩٩). وقد فصَّل الرَّازي القول في بيان معنى (يأجوج ومأجوج).

(٢) تفسير البغوي (٣/٢١٤)، تفسير ابن عادل (١٢/٥٦٢). وانظر قراءة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في (الكشف والبيان) (٦/١٩٣)، روح المعاني (١٦/٣٨)، البيضاوي (٣/٢٩٣)، نظم الدُّرر (٤/٥٠٤)، البغوي (٣/٢١٤). ولم يذكر أكثر المفسِّرين هذا القول؛ لاستبعاده.

(٣) انظر: نظم الدُّرر (١٢/١٣١).

(٤) وتمام الآية: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

(٥) تفسير ابن كثير (٥/١٩٦).

٥ – إجمال ما يستفاد:

الفائدة الأولى: النِّداء فيه إعلامٌ بقربه من الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه لا يفعل إلَّا ما أمره به.

الثانية: ما أمر به صريحٌ، ليس بإلهامٍ ولا باجتهاد منه.

الثالثة: لقد قصَّ الله عَزَّوَجَلَّ علينا قصص بعض خلقه، وهم يهجرون ويغادرون أوطانهم في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فمن ذلك قصَّة الفتية –(أصحاب الكهف) و(الرَّقيم)– غادروا قومهم ووطنهم الذي كانت تُعبد فيه الأوثان من دون الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ [الكهف:٩-١٠].

كما أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قصَّ علينا قصَّة ذي القرنين الذي غادر وطنه الأصلي؛ لإقامة دين الله عَزَّوَجَلَّ، ونشر العدل في الآفاق غربًا وشرقًا، يقول الله عَزَّوَجَلَّ عن رحلته: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦﴾ [الكهف:٨٥– ٨٦]، إلى أن قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٣﴾ [٨٩-٩٣]..

وكثُر تناول القرآن العظيم لقضية خروج النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ من (مكَّة)، بل وإخراجهم منها كما هو تعبير الكتاب المبين في كثيرٍ من المواطن، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الذينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ..﴾ [التوبة:٤٠]. ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:١٣]. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ

تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي..﴾ [الممتحنة:١]. إلى غير ذلك من الآيات المستفيضة في هذا الموضوع.

ولقد تحدَّث القرآنُ المبين عمَّا يقوم به أعداء الدِّين والملَّة من تهديد أولياء الله عَزَّوَجَلَّ بالإخراج عن أوطانهم ونفيهم منها، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم:١٣-١٤].

ومن هؤلاء قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ الذين هدَّدوه بذلك، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الذينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالذينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف:٨٨]، وقريبٌ من هذا ما أراده قومٌ نبيِّ الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ به: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الشعراء:١٦٧-١٦٩]، وجُمِع هذا البلاء للنَّبيِّ محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من طرفيه حيثُ هُدِّد بهذا في (مكَّة) على يد وألسنة قريش، وفي (المدينة) على ألسنة المنافقين.

وكذلك أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانت فتنتهم في (مكَّة) فتنة الإيذاء والتَّعذيب وما يلقونه من المشركين من ألوان الهزء والسُّخرية، فلمَّا هاجروا إلى (المدينة) أصبحت فتنتهم في ترك دورهم وأمتعتهم وأموالهم..ولقد كانوا أوفياء ومخلصين لدينهم أمام الفتنة الأولى وأمام الفتنة الثَّانية.

وإن من أغلى حقائق الإنسانية الحرية، وقد آثر الكثير من الدعاة ترك أوطانهم حيث ضيِّق عليهم، ومنعوا من قول الحق، ولم يرتضوا لأنفسهم أن يخونوا دينهم، وأن يكونوا أبواقًا لسلطانٍ ظالم جائر، ينافقون ويداهنون من أجل عرض زائل، فآثروا الهجرة وترك الأهل والوطن والمال؛ فإن الحرية أغلى، وإن الصَّدع بالحق أولى، يتخير الدعاة الأرض الطيبة ليضعوا بذور دعوتهم، تلك الغراس التي تثمر قيمًا وأخلاقًا ودينًا وصلاحًا وبصيرة وفهمًا..

وقد شبَّه الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتعالى إخراج العبد من وطنه، بإخراج روحه من جسده، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٦٦]، فأتى الله عَزَّوَجَلَّ بأصعب أمرين: إخراج الروح من الجسد، وإخراج الجسد من الوطن.

وإخراج الإنسان من وطنه ليس بالأمر الهيِّن، فهو بمثابة زرعٍ فَقَدَ تُرْبَتَهُ، فهو ذاوٍ[(١)] لا يثمر ولا يَنْضُرُ.

وقد جاء في (الصحيح) في قصة بداية نزول القرآن على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذهابه إلى ورقة بن نوفل، وقول ورقة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا ليتني أكون حيًّا؛ إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: ((**أو مخرجي هم؟!**))، قال: نعم..[(٢)].

فتأمل كيف راجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورقة في إخراجه من بلده، ولم يراجعه في إخباره بعداء قومه وأذيتهم له في جسده؟!

قال السهيلي رَحِمَهُ اللَّهُ: "يؤخذ منه: شدة مفارقة الوطن على النفس؛ فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع قول ورقة أنهم يؤذونه ويكذبونه، فلم يظهر منه انزعاج لذلك، فلما ذكر له: الإخراج تحركت نفسه لذلك؛ لحب الوطن وإلفه فقال: ((**أو مخرجي هم؟!**))"[(٣)].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قدم من سفر، فأبصر درجات المدينة، أوضع ناقته، وإن كانت دابة حركها، قال أبو عبد الله: زاد الحارث بن عمير، عن حميد: حركها من حبها[(٤)]، أي: حثها على الإسراع لجهة المدينة، والدخول إليها؛ لكثرة حبه لها. وفي الحديث دلالة على فضل المدينة، وعلى مشروعية:

---

(١) يقال: (ذوى) البقل يذوي بالكسر (ذُوِيًّا) مضموم مشدد فهو (ذاو) أي: ذبل.

(٢) صحيح البخاري [٣]، مسلم [١٦٠].

(٣) فتح الباري، لابن حجر (٣٥٩/١٢).

(٤) صحيح البخاري [١٨٠٢].

حب الوطن والحنين إليه[1]. ويدل على أن الوطن الحقيقي هو الذي ارتضاه الإنسان محلًّا ومسكنًا يقيم فيه، وتنفس فيه الحرية، ولد به أو لم يولد[2].

فموطني حيث كرامتي..موطني هو المكان الذي لا أتجرعُ فيه الظلم والقهر ليل نهار، هو الذي أشعرُ فيه بالأمن والحرية في التدين وإبداء الرأي، هو الذي أساهم في نهوضه، هو الذي أشعر فيه بأني إنسان.

ولا يمنع ذلك من الحنين للموطن الأصلي الذي ولد فيه، وأن يتمنى له الخير، وأن يتحرر من الجهل والظلم والفقر والاستبداد، وأن يرقى إلى مصافِّ الدول المتقدمة..إلى غير ذلك.

الرابعة: يستفادُ من قصَّة ذي القرنين إعداد العدَّة لإعلاء دين الله عَزَّوَجَلَّ، ومواجهة المفسدين، حيث إنَّ بناء السَّدِّ من وسائل الصِّناعة التي ذكرها القرآن الكريم في معرض التَّمكين والنَّجاة والامتناع من عبثِ المفسدين، وكيف حال ذلك السَّد بين المفسدين العابثين وبين الأقوام التي كانت دون السَّدين -وهي سلسلة الجبال- ببناء ذلك الرَّدم العظيم، وهو سدٌّ بناه ذو القرنين لم يكن كغيره من سدود بني الإنسان التي تبنى باللَّبِنِ والحجارة ونحوه، وإنما كان سدًّا مبنيًّا بأرقى طرائق البناء، وأقوى معادن الصِّناعة، وأتقن وسائل التَّصميم، وإليك بيان هذا مجملا: لقد أتى ذو القرنين على أولئك الأقوام المتخلِّفين الذين لا يكادون يفقهون قولا، ولا يعلمون شيئًا من أحوال التَّحضر، فشكوا

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٦٢١/٣)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني (١٣٥/٣)، تحفة الأحوذي (٢٨٣/٩).

(٢) قال ابن منظور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المنزل تقيم فيه، وهو موطن الإنسان، ومحله..يقال: أوطن فلان أرض كذا وكذا، أي: اتخذها محلًّا ومسكنًا يقيم فيها". لسان العرب، مادة: (وطن) (٤٥١/١٣)، العين، للخليل الفراهيدي (٤٥٤/٧)، تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري (٢١/١٤). وعرف الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ الوطن بقوله: "الوطن الأصلي: هو مولد الرجل والبلد الذي هو فيه". التعريفات (ص:٢٥٣)، التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (ص:٣٣٨). وقيل: "الوطن بالمعنى العام: منزل الاقامة، والوطن الأصلي هو المكان الذي ولد به الإنسان، أو نشأ فيه. والوطن بالمعنى الخاص هو البيئة الروحية التي تتجه اليها عواطف الانسان القومية". المعجم الفلسفي، للدكتور جميل صليبا (٥٨٠/٢).

إليه إفساد يأجوج ومأجوج، وطلبوا منه إقامة سدٍّ ويعطونه أجرًا على ذلك، وطلبهم لإقامة سدٍّ كان وجيهًا؛ لأنَّه كان بينهم وبين يأجوج ومأجوج حواجز من شواهقِ الجبال الصُّمِّ والتي تمتدُّ بينهما على شكل سلسلتين من الجبال، بينهما فجوة هي منفذ يأجوج ومأجوج في هجماتهم على القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا، وعند ذلك استعدَّ ذو القرنين ببناء السَّدِّ، وسمَّاه ردمًا، أي: أعظم مما طلبوه، وعمد إلى تلك الفجوة التي بين الصَّدفين -وهما الجبلان العظيمان المتقابلان- فملأ الفجوة بِزُبَر الحديد، أي: قِطَعهُ المقدَّرة مثل اللَّبِن حتَّى ساوى بين رؤوس الجبلين وبين ما في الفجوة من الحديد فجعلهم سواء، ثمَّ أمر فنفخت الحديد بالنَّار حتَّى جعلت من قِطَع الحديد نارًا، فأصبحت حمراء متوهِّجة، فصُبَّ عليها وهي في تلك الحال النُّحاسُ المذاب، وهو القِطْر، فاستحكم البناء أيَّما استحكام، وقوي كلَّ قوَّة، وأصبح غاية في الصَّلابة والملاسة قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف:٩٧].

ولا أدلَّ على قوَّة صناعة سدِّ ذي القرنين، وعلى ارتقاء علم الصِّناعة والعمران لديه من بقاء ذلك السَّدِّ وعدم تغيُّره رغم تعاقب العصور والدُّهور، والسَّدُّ لا زال قائمًا وحتَّى يومنا هذا، وحتَّى يأذن الله عَزَّوَجَلَّ بقرب يوم القيامة، وخروج يأجوج ومأجوج، قال: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف:٩٨]. وقد كان السَّدُّ الذي هو من منتجات الصِّناعة الفائقةِ رحمةً من الله عَزَّوَجَلَّ للنَّاس ليتمكَّنوا من العيش آمنين في عزلةٍ من عبث المفسدين من يأجوج ومأجوج.

السابع عشر: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ [مريم:٢٨]:

١ – ورود هذه الصِّيغة:

وقد وردت في موضع واحد: [مريم:٢٨].

٢ – العرض والتَّحليل:

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ استئناف لتجديد التَّعيير وتأكيد التَّوبيخ[١]. وليس المراد بهارون أخا موسى بن عمران عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ: فعن المغيرة بن شعبة، قال: لما قدمتُ نجران[٢] سألوني فقالوا: إنَّكم تقرؤون: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وموسى قَبْل عيسى بكذا وكذا، فلمَّا قدمتُ على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سألته عن ذلك فقال: ((**إنَّهم كانوا يُسَمُّونَ بأنبيائهم والصَّالحين قبلهم**))[٣]، ((**فقالوا**))، أي: أهل نجران: ((**ألستم تقرؤون؟**))، أي: في القرآن في (سورة مريم): ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾، وبعده: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾، أي: يا شبيهة هارون في العبادة أنت من بيتٍ طيِّبٍ طاهرٍ، معروفٍ بالصَّلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟![٤].

وقيل: ﴿أُخْتَ هَارُونَ﴾، أَي: أخي موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وكانت من نسله، كما يقال للتَّمِيمِيِّ: (يا أخا تَمِيم)، والْمُضَرِيِّ: (يا أخا مُضَرَ).

وقيل: نسبت إلى رجلٍ صالح كان فيهم اسمه (هارون)، فكانت تقاس به في العبادة، والزهادة[٥].

وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**وَقَدْ كَانَ بَيْنَ مُوسَى وَعِيسَى مَا كَانَ**))، أي: من طول الزَّمان ما لا يمكن أن تكون مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ أختًا لهارون أخي موسى عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، وقوله

---

(١) انظر: تفسير أبي السُّعود (٥/٢٦٣).

(٢) قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((إلى نجران)) قال في (النِّهاية) (٥/٢٠): "هو موضع معروف بين (الحجاز) و(الشام) و(اليمن)". وقال في (القاموس) (١/٦١٧): "(نجران): موضع (باليمن)، فتح سنة (عشر)، سمي بنجران بن زيدان بن سبأ، وموضع (بالبحرين)، وموضع بحوران قرب (دمشق)، وموضع بين (الكوفة) و(واسط)".

(٣) أخرجه مسلم [٢١٣٥].

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٥/٢٠٠-٢٠١)، تفسير الطبري (١٨/١٨٦)، تفسير الصنعاني (٣/٨)، البغوي (٣/٢٣١)، الخازن (٤/٢٤٤)، السَّمعاني (٣/٢٨٨)، معاني القرآن، للنَّحاس (٤/٣٢٧)، ابن عادل (١٣/٥٣)،

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٢٢٧).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ**))، يعني أنَّ هارون المذكور في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ ليس هو هارون النَّبي أخا موسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، بل المراد بهارون هذا رجل آخر مسمَّى بهارون؛ لأنَّهم كانوا يسمُّون أولادهم بأسماء الأنبياء والصَّالحين قبلهم[1].

قال ابنُ جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقال آخرون: بل كان ذلك رجلًا منهم فاسقًا معلن الفسق فنسبوها إليه. ثمَّ قال: والصَّواب من القول في ذلك ما جاء به الخبر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يعني حديث المغيرة بن شعبة هذا) وإنها نسبت إلى رجل من قومها"[2].

وما رجحه الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ، ومال إليه في (التَّحفة)[3] هو الصَّواب؛ لأنَّه يستندُ إلى الدَّليل الصَّحيح.

٣ – إجمال ما يستفاد:

الفائدة الأولى: يلاحظ أنَّ المنكرين "عليها فيما اتهموها به، أرادوا بنفي السوء والبغاء عن أبويها: المبالغة في توبيخها؛ تنبيهًا على أن من كان أبواه صالحين ليس من شأنه: التجرد عن طورهما، والتردي بغير ردائهما، وما كان ينبغي له إلَّا أن يسلك سنن أعمالهما الصالحة، كما أنك تجد أكثر الناشئين في جحور السفلة، أو من أطلقت حبالهم على غواربهم زمن الحداثة في أفظع حال من فساد الأذواق، وعدم الخضوع لسلطة الأحكام الدينية، والانخداع بالظواهر المزخرفة عن الغوص على الحقائق التي لا يلقاها إلَّا ذو حظ عظيم من الحكمة. وقد تعجب العامة لرجل يبرع في فنون كثيرة، ويحسن التصرف في مباحثها المشكلة، فيفرغها في قالب التحقيق، حتى إذا فاوضته في أي علم

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع التِّرمذي (٨/٤٧٧).

(٢) تفسير الطَّبري (١٨/١٨٧).

(٣) انظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٤٧٨).

منها خيل لك أنه الواضع لأصوله، ولا تلبث زمنًا تجس نبض أخلاقه إلَّا وجدت فيها عوجًا وأمتًا.

أما الفيلسوف الناقد فلا يرى ذلك شيئًا عجابًا؛ للنكتة التي لوحنا إليها، وهي سوء التربية الأولى. والدليل على ما نقوله أن الصبي يولد على الفطرة الخالصة، والطبع البسيط، فإذا قوبلت نفسه الساذجة بخلق من الأخلاق انتقشت صورته في لوحها، ثم لم تزل تلك الصورة تمتد شيئًا فشيئًا إلى أن تأخذ بجميع أطراف النفس، وتصير كيفية راسخة فيها، حائلة لها عن الانفعال بضدها. يؤيد هذا أنا إذا رأينا من الغرباء من هو لطيف الخطاب، جميل اللقاء، مستقيم الأخلاق، لا نرتاب في دعوى أنه ممن أنبته الله عَزَّوَجَلَّ في البيوت الفاضلة نباتًا حسنًا"[(١)].

وقولهم: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تقرير لكون ما جاءت به فريًا أو تنبيه على أنَّ ارتكاب الفواحش من أولاد الصَّالحين أفحش. وفيه دليل على أنَّ الفروع غالبًا تكون زاكيةً إذا زكت الأصول، وينكر عليها إذا جاءت بضدِّ ذلك[(٢)].

الثانية: اتَّفق العلماء على أنَّه إذا صرَّح بالزِّنا كان قذفًا ورميًا موجبًا للحدِّ، فإن عرَّض ولم يصرِّح، فقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو قذف.

وقال الشَّافعي وأبو حنيفة رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: لا يكون قذفا حتَّى يقول: أردت به القذف[(٣)].

---

(١) بتصرف عن (السعادة العظمى) (ص:٦٠)، للعلامة محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر وعضو المجمع اللغوي بالقاهرة، والمجمع العلمي العربي بدمشق، جمع وتحقيق: علي الرضا التونسي.

(٢) انظر: تفسير أبي السُّعود (٢٦٣/٥)، روح المعاني (٨٨/١٦)، البحر المحيط (٢٥٧/٧)، البحر المديد (٣٣٠/٣)، تفسير البيضاوي (٩/٤).

(٣) تفسير القرطبي (١٧٣/١٢). انظر أقوال العلماء في (أحكام القرآن الكريم)، للجصَّاص (١١١/٥)، (١٢٩/٢)، الفروع، لابن مفلح (١٤١/٦)، (١٦٢/٦)، الإنصاف، للمرداوي (٣٣٤/١٠)، المغني (٨٠/٩-٨١)، الأم (١٣٢/٥)، (٢٩٧/٧)، شرح فتح القدير، للكمال بن الهمام (١٣٧/٥)، حاشية الدُّسوقي (٣٢٧/٤)، شرح الزُّرقاني (٢٤٣/٣)، التَّمهيد (١٨٨/٦-١٨٩)، المدونة الكبرى (٢٢٤/١٦)، القوانين الفقهية، لابن جزي (٢٣٤/١)، مختصر اختلاف العلماء (٣١١/٣)، بداية=

قال أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رواية: لا أرى الحدَّ إلا على من صرَّح بالقذف والشَّتيمة..[1]، واختلفت الرِّواية عن أحمد في التَّعريض بالقذف[2].

وقد نصر القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ذهب إليه الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: "والدَّليل لما قاله مالك هو أنَّ موضوع الحدِّ في القذف إنما هو لإزالة المعرَّة التي أوقعها القاذف بالمقذوف، فإذا حصلت المعرَّة بالتَّعريض وجب أن يكون قذفًا كالتَّصريح. والمعوَّل على الفهم، وقد قال عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧]، أي: السَّفيه الضَّال، فعرَّضوا له بالسَّبِّ بكلامٍ ظاهره المدح في أحد التَّأويلات. وقال عَزَّوَجَلَّ في أبي جهل[3]: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩]. وقال حكاية عن مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾، فمدحوا أباها، ونفوا عن أمِّها البغاء، أي: الزِّنا، وعرَّضوا لمريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ بذلك، ولذلك قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٥٦]، وكفرهم معروف، والبهتان العظيم هو التَّعريض لها، أي: ما كان أبوك امرأ سوءٍ وما كانت أُمُّكِ بغيًّا، أي: أنت بخلافهما وقد أتيت بهذا الولد. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، فهذا اللَّفظ قد

=المجتهد (٣٣٠/٢)، نيل الأوطار (٥٧/٧)، المحلَّى (١٧٦/١١)، سبل السَّلام (١٩٦/٣)، المنثور (٣٦١/١)، إعلام الموقعين (١٠٣/٣)، (١٢٩/٣).

(١) المغني (٨٠/٩)، الشَّرح الكبير، لابن قدامة (١٠/ ٢٢٧)، شرح منتهى الإرادات المسمَّى دقائق أولي النُّهى لشرح المنتهى، للبهوتي (٣٥٨/٣)، مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه (٣٢٧٣/٧)، مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٢٠٣/٦)، منار السبيل في شرح الدَّليل (٣٧٦/٢).

(٢) المغني (٨١/٩)، وانظر: المصادر السَّابقة.

(٣) أبو جهل هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، أشدُّ النَّاس عداوة للنَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صدر الإسلام، وأحد سادات قريش وأبطالها ودهاتها في الجاهلية. أدرك الإسلام، وكان يقال له: (أبو الحكم)، فدعاه المسلمون: (أبا جهل) مات سنة [٢هـ]. الأعلام (٨٧/٥)، وانظر: الرَّوض الأنف (١٧٥/٣)، السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٢٦٦/٣)، جوامع السِّيرة وخمس رسائل أخرى، لابن حزم (ص:٥٣)، سبل الهدى والرَّشاد (٤٦٩/٢– ٤٧٠)، المنمَّق في أخبار قريش (ص:٤٤١).

فهم منه أنَّ المراد به أنَّ الكفَّار على غير هدى، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على الهدى، ففهم من هذا التَّعريض ما يفهم من صريحه"[(١)].

وعلى أيَّة حالٍ فإنَّ هذه المسألة مبسوطة في مظانِّها من كتب الفقه، وشرح آيات وأحاديث الأحكام، وفيها تفصيل..

الثامن عشر: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ﴾ [طه:٩٤]:

١ – ورود هذه الصيغة:

أما ورود هذه الصيغة ففي موضع واحدٍ مصرَّحًا بذكر أداة النِّداء (يا)، وهو في [طه:٩٤]، ومقدَّرًا في [الأعراف:١٥٠]. من هارون لموسى عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ.

والتَّرتيب المصحفي يقتضي تقديم (سورة الأعراف) على (سورة طه)، ولكنِّي قدَّمت ما جاء مصرَّحًا بذكر أداة النِّداء فيه على ما جاء مقدَّرًا.

٢ – سبب العدول عن الإضافة إلى الأب مع أنَّهما لأبٍ وأمٍّ واحدة:

ولم يقل: (يا ابن أبي)، وهما لأبٍ واحد، وأمٍّ واحدة؛ استعطافًا له على نفسه برحم الأم[(٢)].

وفي (تفسير ابن كثير): "ترفَّق له بذكر الأمِّ مع أنَّه شقيقه لأبويه؛ لأنَّ ذكر الأمِّ هاهنا أرقُّ وأبلغ، أي: في الحنو والعطف"[(٣)].

"والإنسان عند ذكر الوالدة أرقُّ منه عند ذكر الوالد"[(٤)].

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/١٧٣). وانظر شروط القذف (التِّسعة) في الموضع نفسه من (تفسير القرطبي).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (١٣/١٣١)، معاني القرآن، للفرَّاء (١/٣٩٤)، تفسير الثَّعالبي (٤/٦٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٥/٣١٢).

(٤) زاد المسير (٢/١٥٧)، وانظر: تفسير أبي السُّعود (٦/٣٨).

٣ – توجيه القراءات:

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ قرأ ابنُ كثير ونافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ نصبًا. وقرأ ابنُ عامر، وحمزةُ، والكسائيُّ، وأبو بكر عن عاصم بكسر الميم، وكذلك في [طه:٩٤][(١)].

قال الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من فتح الميم؛ فلكثرة استعمال هذا الاسم، ومن كسر، أضافه إلى نفسه بعد أن جعله اسمًا واحدًا، ومن العرب من يقول : (يا ابن أمي) بإثبات الياء"[(٢)].

وقال الإمام الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قرأ ابنُ عامر وحمزة والكسائيُّ وأبو بكرٍ عن عاصم: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ –بكسر الميم–. وفي (طه) مثله على تقدير: (أمي)، فحذفت (ياء الإضافة)؛ لأنَّ مبنى النِّداء على الحذف، وبقي الكسر على الميم؛ ليدلَّ على الإضافة، كقوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ [الزمر:١٠]، والباقون بفتح الميم في السُّورتين، وفيه قولان: أحدهما: أنهما جعلا اسمًا واحدًا وبنى لكثرة اصطحاب هذين الحرفين فصار بمنزلة اسم واحد، نحو: (حضرموت) و(خمسة عشر). وثانيهما: أنَّه على حذف الألف المبدلة من (ياء الإضافة)، وأصله: (يا ابن أما)"[(٣)].

وفي (التَّحرير والتَّنوير): "قوله في الجواب: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ نداء لقصد التَّرقيق والاستشفاع. وهو مؤذن بأنَّ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين وبَّخه أخذ بِشَعرِ لحية هارون، ويشعر بأنَّه يجذبه إليه ليلطمه، وقد صرَّح به في (الأعراف) بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ﴾ –بفتح الميم–. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائيُّ، وأبو بكر عن عاصم، وخلف بكسر الميم. وأصله: (يا ابن أمِّي)، فحذفت (ياء المتكلِّم)

---

(١) انظر: زاد المسير (١٥٦/٢)، النَّشر في القراءات العشر (٣٠٧/٢)، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص:٣٨٨).

(٢) معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٣٧٣/٣)، زاد المسير (٢٦٤/٣).

(٣) تفسير الرَّازي (٣٧٢/١٥)، وانظر: معاني القرآن، للأخفش (ص:٤٤٨).

تخفيفًا، وهو حذف مخصوص بالنِّداء. والقراءتان وجهان في حذف (ياء المتكلِّم) المضاف إليها لفظ: (أمّ) ولفظ: (عَمّ) في النِّداء. وعطف الرَّأس على اللِّحية؛ لأنَّ أخذه من لحيته أشدُّ ألمًا وأنكى في الإذلال. و(ابنُ الأم): الأخ. وعدل عن (يا أخي) إلى (ابن أم)؛ لأنَّ ذكر الأمِّ تذكير بأقوى أواصر الأخوَّة، وهي آصرة الولادة من بطنٍ واحد، والرَّضاع من لبانٍ واحد"[1].

٤ – إجمال ما يستفاد:

الفائدة الأولى: أنَّ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يغضبون؛ انتصارًا لأنفسهم، وإنما يغضبون لله عَزَّوَجَلَّ، أن تنتهك حرمةٌ من حرماتِ الله عَزَّوَجَلَّ.

الثانية: حرصُ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى أممهم.

الثالثة: يستفاد من موقف هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه كان حكيمًا في جوابه، فقد حاول أن يهدِّئ من غضب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ باستجاشة عاطفة الرَّحم في نفسه. ثم بين له موقفه فقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:٩٤]، أي: خشيت إن خرجت عنهم وتركتهم أن يتفرقوا فتقول لي: إنك فرقت جماعتهم؛ لأن هارون لو خرج لتبعه جماعة ممن لم يعبد العجل وتخلف مع السامري عند العجل آخرون، وربما أفضى ذلك إلى القتال بينهم. فتقول: لم تعمل بوصيتي لك فيهم وتحفظها، ومراده بوصية موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ له قوله هو: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف:١٤٢] قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: معناه ولم تنتظر عهدي وقدومي؛ لأنك أمرتني أن أكون معهم. وقال ابن جريج رَحِمَهُ اللَّهُ: لم تنتظر قولي ما أنا صانع. فاعتذر هارون إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ها هنا بهذا، واعتذر إليه في (الأعراف) بما حكاه الله عَزَّوَجَلَّ عنه حيث قال: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف:١٥٠].

الرابعة: أنَّ الخطاب بهذه الصِّيغة هو من (خطاب التَّحبب التَّحنن والاستعطاف).

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (١٦/٢٩٢).

التاسع عشر: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾:

١ – مواضع ورود هذه الصِّيغة:

أما مواضع ورود هذه الصِّيغة فهي ستَّة: [الأنبياء:١٤]، [الأنبياء:٤٦]، [الأنبياء:٩٧]، [يس:٥٢]، [الصَّافات:٢٠]، [القلم:٣١].

٢ – معنى (الويل):

"(الويل): لفظ دالٌّ على الشرِّ أو الهلاك[(١)]، ولم يسمع له فعل من لفظه؛ فلذلك قيل: هو اسم مصدر، وقيل: هو مصدر امتنع العرب من استعمال فعله؛ لأنَّه لو صُرِّف لوجب اعتلال فائه وعينه، وذلك بأن يجتمع فيه إعلالان، أي: فيكون ثقيلًا. و(الويلة): البليَّة. وهي مؤنَّث (الويل)، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ [الكهف:٤٩]"[(٢)].

ويستعمل (الويل) بدون حرف نداء كما في الآية[(٣)]، ويستعمل بحرف النِّداء كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:١٤]، كما يقال: (يا حسرتا).

٣ – موقعه من الإعراب:

"فأمَّا موقعه من الإعراب فإنَّه إذا لم يضف أُعْرِب إعرابَ الأسماء المبتدأ بها، وأُخْبر عنه بلام الجرِّ، كما في هذه الآية، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين:١].

---

(١) انظر: لسان العرب، مادَّة: (ويل) (٧٣٧/١١)، تهذيب اللغة، مادَّة: (ويل) (٣٢٦/١٥)، وانظر: روح المعاني (٦٨/٣٠).

(٢) بتصرُّف عن (التَّحرير والتَّنوير) (٥٧٦/١).

(٣) يعني قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩].

قال الجوهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وينصب فيقال: ويلًا لزيد[1] وجعل سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك قبيحًا[2]، وأوجب إذا ابتدئ به أن يكون مرفوعًا، وأمَّا إذا أضيف فإنَّه يضاف إلى الضَّمير غالبًا كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ﴾ [القصص:٨٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ [الأحقاف:١٧]، فيكون منصوبًا، وقد يضاف إلى الاسم الظَّاهر فيعرب إعراب غير المضاف كقول النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بصير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[3]:

((وَيْلُ أُمِّه مِسْعَرَ حَرْب))[4].

---

(١) انظر: الصِّحاح، للجوهريِّ، مادَّة: (ويل) (٥/١٨٤٦).

(٢) ونصُّ عبارة سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الكتاب): "وأمَّا قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٥]، و﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، فإنَّه لا ينبغي أن تقول: إنَّه دعاء ههنا؛ لأنَّ الكلام بذلك قبيح، واللَّفظ به قبيح، ولكنَّ العباد إنَّما كلِّموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون، فكأنَّه -والله أعلم- قيل لهم: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، و﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: هؤلاء ممن وجب هذا القول لهم؛ لأنَّ هذا الكلام إنما يقال لصاحب الشر والهلكلة، فقيل: هؤلاء ممَّن دخل في الشَّر والهلكة، ووجب لهم هذا". الكتاب، لسيبويه (١/٣٣١).

(٣) هو أبو بصير الصَّحابي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، واسمه عتبة بن أسيد -بفتح الهمزة وكسر السِّين- بن جارية -بالجيم- بن أسد بن عبد الله ابن أبي سلمة بن عبد الله بن غيرة -بكسر الغين المعجمة وفتح المثنَّاة تحت- بن عوف بن ثقيف الثَّقفي، حليف بني زهرة، وهو مشهور بكنيته. توفِّي في حياة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت وفاته بسيف البحر -بكسر السِّين- وهي ساحله في الموضع الذي أقام فيه، وجاءه المستضعفون من المؤمنين من (مكَّة)، فأقاموا هناك حتَّى بلغوا (ستِّين) أو (سبعين)، وكان أبو بصير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كبيرهم، وهو أوَّل من أقام هناك، وقصَّته مشهورة في (صحيح البخاري) [كما سيأتي] وغيره. وتوفِّي بعد (صلح الحديبية). وقيل: (فتح مكَّة)، وكان الصُّلح في ذي القعدة، سنة (ستٍّ) من الهجرة، و(فتح مكَّة) في رمضان سنة (ثمان)، وصلَّى عليه أصحابه، أبو جندل والباقون، ودفنوه هناك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. تهذيب الأسماء (٢/١٨٠)، وانظر: الإصابة (٤/٤٣٣)، معرفة الصَّحابة (٤/٢١٣٢).

(٤) صحيح البخاري [٢٧٣١]. قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الفتح): "((وَيْلُ أُمِّه)) وهي كلمة ذمٍّ تقولها العرب في المدح ولا يقصدون معنى ما فيها من الذَّمِّ؛ لأنَّ (الويل) الهلاك فهو كقولهم: (لأمِّه الويل). قال بديع الزمان: والعرب تطلق: (تربت يمينه) في الأمر إذا أهمَّ. ويقولون: (ويل أمِّه)، ولا يقصدون الذَّم. و(الويل) يطلق على العذاب والحرب والزَّجر..". فتح الباري (٥/٣٥٠). وانظر: عون المعبود (٧/٣١٩-٣٢٠)، نيل الأوطار (٨/٢٠٣). والحاصل أنَّ قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((وَيْلُ أُمِّه مِسْعَرَ حَرْبٍ)) قد ورد (الوَيْل) فيه=

ولما أشبه في إعرابه المصادر الآتية[1] بدلًا من أفعالها نصبًا ورفعًا مثل: (حمدًا للهِ وصبرٌ جميل)، قال أكثر أئمَّة العربيَّة: إنَّه مصدر أُميتَ فعله. ومنهم من زعم أنَّه اسم وجعل نصبَهَ في حالة الإضافة نصبًا على النِّداء بحذف حرف النِّداء؛ لكثرة الاستعمال، فأصل: (وَيلَه): يا ويله، بدليل ظهور حرف النِّداء معه في كلامهم. وربَّما جعلوه كالمندوب فقالوا: (ويْلاه). وقد أعربه الزَّجاج كذلك [في (سورة طه): ٦١، كما سيأتي]. ومنهم من زعم أنَّه إذا نصب فعلى تقدير (فعل)"[2].

قال الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3] في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه:٦١]: يجوز أن يكون التَّقدير: (ألزمكم الله ويلا). ويجوز أنَّ (ويل) كلمةٌ مركَّبةٌ من: (وَيْ) بمعنى الحُزن، ومن مجرورٍ باللام المكسورة، فلمَّا كثر استعمال اللام مع (وَيْ) صيَّروهما حرفًا واحدًا، فاختاروا فتح اللام كما قالوا: (يَالَ ضَبَّةَ)[4] ففتحوا اللام، وهي في

=بمعنى التَّعَجُّب والمدح، و((مِسْعَرَ حَرْبٍ))، أي: موقد حرب، يقال: سعرت النَّار وأسعرتها فهي مسعورة ومسعرة. و(المسعر): الخشب الذي تسعر به النَّار أي: توقد. و(المِسعر) و(المِسْعار): ما تُحَرِّكُ به النارُ من آلةِ الحديد. يَصِفُه بالمبالغة في الحَرْب والنَّجدة. ويُجْمعان على مَساعر ومَساعير. وفي (الفتح): "قال الخطابي: كأنَّه يصفه بالإقدام في الحرب والتَّسعير لنارها". انظر: فتح الباري، لابن حجر (٣٥٠/٥)، الفائق، للزَّمخشري (٢٨٤/١)، النِّهاية، مادَّة: (سعر) (٩٢٩/٢)، ومادَّة: (ويل) (٥٣٢/٥)، ومادَّة: (هبل) (٥٤٤/٥)، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، للأزدي (ص:١٩١)، شرح سنن ابن ماجه، لمغلطاي (٧٨٦/١)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣٢٩/٩-٣٣٢).

(١) أي: أشبهه في (الوزن والإعراب)، فـ: (حمدًا) مصدر ناب عن فعله، أو مفعول مطلق لفعل محذوف..

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٥٧٦/١).

(٣) معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٣٦٠/٣).

(٤) (ضبة بن أد) بطن من طابخة، من العدنانيَّة، وهم (بنو ضبة) بن أد بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وهم من جمرات العرب الثَّلاث. منازلهم كانت منازلهم في جوار (بني تميم) إخوتهم، بالنَّاحية الشَّمالية التهامية من (نجد)، ثمَّ انتقلوا في الإسلام إلى (العراق) بجهة (النعمانية). معجم قبائل العرب (٦٦١/٢)، معجم البلدان (٢٧٦/٢). وجاء في (موقعة الجمل) أنَّه لم يبق حول الجمل عامريٌّ مكتهلٌ إلا أصيب، يتسرَّعون إلى الموت، فقال القعقاع: يا بحير بن دلجة، صح بقومك فليعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أمُّ المؤمنين، فقال: (يال ضبة)، يا عمرو بن دلجة، ادع بي إليك، فدعا به، فقال: أنا آمن حتَّى أرجع؟ قال: نعم. قال: فاجتثَّ ساق البعير، فرمى بنفسه على شقِّه وجرجر البعير..والقصة=

الأصل مكسورة. وهو يستعمل دعاء وتعجُّبًا وزجرًا مثل قولهم: (لا أب لك)، و(ثكلتك أمُّك). ومعنى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة:٧٩] دعاءٌ مستعملٌ في إنشاءِ الغضب والزَّجر(١).

وقوله عَزَّوَجَلَّ: "﴿يَا وَيْلَنَا﴾ هو نداءُ مضاف، والمعنى: يقول الكفَّار: (تعال يا ويل فهذا زمانك وأوانُك)، وقيل: هو منصوب على المصدر، والمنادى محذوف كأنَّهم قالوا لبعضهم: (يا هؤلاء ويلا لنا)، فلمَّا أضاف حذف اللام الثَّانية. وقال الكوفيُّون: اللام الأولى هي المحذوفة، وأصله: عندهم: (وي لنا)، وقد أجازوا: (ويلَ زيد) -بفتح اللام-، وهي عندهم (لامُ الجرِّ)، و(لام الجرِّ) لا تفتح مع غير المضمر، وأجازوا الضَّم، وفي ذلك دليل ظاهرٌ بيِّن أنَّ الثَّانية هي المحذوفة"(٢).

وفي (لسان العرب): "(ويل) وَيْلٌ كلمة مثل وَيْحٍ إلَّا أنها كلمة عَذاب(٣)، يقال: (وَيْلَهُ) و(وَيْلَكَ) و(وَيْلي)، وفي النُّدْبةِ: (وَيْلاهُ). وقد تدخل عليه الهاء فيقال: (وَيْلة). و(الوَيْل) حُلولُ الشرِّ والوَيْلةُ الفضيحة والبَلِيَّة. وقيل: هو تَفَجُّع، وإذا قال القائل: (واوَيْلَتاه) فإنما يعني: (وافَضِيحَتاه)..."(٤).

٤ – إجمال ما يستفاد:

إنَّ (ما ولي المنادَى) في هذه الصِّيغة من الخطاب معناه متقارب..

=طويلة..انظر: تاريخ الطَّبري (٥١/٣)، الفتنة ووقعة الجمل، لسيف بن عمر الضَّبي الأسدي (ص:١٦٦)، نهاية الأرب في فنون الأدب (٤٧/٢٠).

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٣٦٠/٣)، التَّحرير والتَّنوير (٥٧٧/١).

(٢) انظر: مشكل إعراب القرآن الكريم، لمكي (٦٠٦/٢)، وانظر: تاج العروس، مادَّة: (ويل) (١٠٦/٣١).

(٣) انظر: الفرق بين الفرق بين (ويح) و(ويل) مفصَّلًا في (الفروق) (ص:٥٧٩).

(٤) الصِّحاح، للجوهري مادَّة: (ويل) (١٨٤٦/٥)، لسان العرب (٧٣٧/١١)، مختار الصِّحاح (ص:٧٤٠).

وهو يدلُّ على أنَّه لا مفرَّ ولا مهربَ من بأس الله عَزَّوَجَلَّ المحيط. وأنَّه لا ينفعهم ركضٌ، ولا ينقذهم فرارٌ. وهو من تفجع المفجوءِ الذي تتكشَّفُ له الحقيقة المروِّعة بغتةً، فيدعو بالويلِ والهلاك، ويعترف ويندم، ولكن بعد فوات الأوان!

العشرون: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ [العنكبوت:٥٦]:

وقد سبقَ ما يتعلَّقُ بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءاتِ العَامَّةِ)، وقد سبق أيضًا بيان أنَّه من (نداء الإضافة).

الحادي والعشرون: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ [الأحزاب:١٣]:

في موضع واحد. وقد سبقَ ما يتعلَّقُ بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءاتِ العَامَّةِ).

الثاني والعشرون: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾:

في موضعين، [الأحزاب:٣٠]، [الأحزاب:٣٢].

وقد سبقَ ما يتعلَّقُ بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءاتِ العَامَّةِ)، وقد سبق بيان أنَّه من (نداء النِّسبة).

الثالث والعشرون: ﴿يَا حَسْرَتَا﴾:

١ – ورود هذه الصيغة:

في موضع واحد من [سورة الزُّمر:٥٦].

وقد أفردتُ (خطاب التحسر..) بالبحث في (أساليب الخطاب في القرآن)[(١)].

٢ – بيان مادَّة: (حسر):

يقال: (حَسَرَ كُمَّه عن ذراعه): كَشَفَه، وبابه: ضرب، و(الانحسار): الانكشاف، و(حَسَر البعير) أعيا، وحَسَرَه غيرُه، و(اسْتَحْسَر) أيضًا: أعيا، ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩]، و(حَسَرَ بصرُه يَحْسِرُ حُسُورًا)، أي: كَلَّ وانْقَطَعَ نَظَرُهُ مِنْ طُول مَدىً، وما أشبه ذلك، فهو (حَسِيرٌ) و(مَحْسُورٌ) أيضًا. وبابه: (جلس). و(الحَسْرَةُ): أشدُّ التلهُّف على الشيء الفائت. تقول منه: (حَسِرَ على الشيء) بالكسر –من باب طَرِب– يَحْسَرُ حَسَرًا وحَسْرَةً، فهو (حَسِيرٌ). و(حَسَّرْتُ غيري تَحْسِيرًا)، و(التَّحسر) أيضًا: التَّلهف.."[(٢)].

٣ – تفسير الآية:

أي: بادروا واحذروا أن تقول نفس. وقال الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: خوف أن تصيروا إلى حال تقولون هذا القول: ﴿يَا حَسْرَتَا﴾ (يا ندامتا)، والتَّحسر الاغتمام على ما فات،

---

(١) انظر: أساليب الخطاب في القرآن لكريم، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، طبع في وزارة الأوقاف، الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ] من (٥٣١/١) إلى (٥٤٥/١).

(٢) انظر: مادَّة: (حسر) في (مختار الصِّحاح)، (ص:١٦٧)، لسان العرب (١٨٧/٤)، العين (١٣٣/٣).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٣٥٨/٤ – ٣٥٩).

وأراد: يا حسرتي، على الإضافة، لكن العرب تحوِّل (ياء الكناية) ألفًا في الاستغاثة، فتقول: (يا حسرتا)، و(يا ندامتا)، وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف ليدلَّ على الإضافة، وكذلك قرأ أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يا حسرتاى﴾[1].

وقيل: معنى قوله: ﴿يَا حَسْرَتَا﴾: (يا أيَّتُها الحسرة هذا وقتك)، ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾[2]، فيه أقوال..، قيل: في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وقيل: في حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ، وقيل: في أمْرِ الله عَزَّوَجَلَّ، وقيل: في ذِكْرِ الله عَزَّوَجَلَّ، وقيل: في قُرْبِ الله عَزَّوَجَلَّ[3].

ومن قال من المفسِّرين: (الجَنْب): القُرْب، فإنَّ المعنى (في قُرْب الله عَزَّوَجَلَّ وجِواره)، كما يقال: (فلان يعيش في جَنْب فلان)، أي: في قُرْبه وجواره، فعلى هذا يكون المعنى: (على ما فرَّطْتُ في طلب قُرْب الله عَزَّوَجَلَّ). ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ المستهزئين بدين الله عَزَّوَجَلَّ وكتابه ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين. ولم يكفه أن ضيَّع طاعةَ الله عَزَّوَجَلَّ حتَّى جعل يسخرُ بأهل طاعته[4].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ في موضع المفعول له بتقديرِ مضافٍ. وقدَّره الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[5]: كراهة، وهو منصوب بفعلٍ محذوف يدلُّ عليه ما قبل، أي: أنذركم

---

(١) انظر القراءة في (تحبير التَّيسير في القراءات العشر)، لابن الجزري (ص:٥٣٦)، الكشاف (٤٠٤/٣)، التِّبيان في إعراب القرآن (٢١٥/٢)، إملاء ما منَّ به الرَّحمن (ص:٢١٥)، نظم الدُّرر (٤٦٣/٦)، تفسير القرطبي (٢٧١/١٥)، الكشف والبيان (٢٤٦/٨)، زاد المسير (٢٤/٤)، التَّحرير والتَّنوير (٤٥/٢٤)، البحر المديد (٩٥/٥)، الدُّر المصون (١٩/٦—٢٠)، المحرر الوجيز (٤/ ٥٣٨)، البغوي (٩٨/٤).

(٢) تفسير البغوي (٤/ ٩٨)، وانظر: تفسير القرطبي (٢٧٠/١٥— ٢٧١)، ابن عادل (٥٣٣/١٦)، السمعاني (٤٧٧/٤)، البغوي (٧/ ١٢٩).

(٣) انظر: زاد المسير (٢٤/٤)، روح المعاني (١٧/٢٤)، تفسير النَّيسابوري (١١/٦)، ابن عادل (٥٣٣/١٦)، الخازن (٨٢/٦)، الرَّازي (٤٦٦/٢٧)، تفسير القرطبي (٢٧١/١٥)، النسفي (١٨٨/٣).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٣١٥/٢١)، القرطبي (٢٧١/١٥)، البحر المحيط (٢١٤/٩)، تفسير البغوي (٩٨/٤)، الكشف والبيان (٨/ ٢٤٧)، الرازي (٤٦٧/٢٧)، الدر المنثور (٢٤١/٧)، الخازن (٦٢/٤).

(٥) قال الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الكشاف): ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ كراهة أن تقول. فإن قلتَ: لم نكِّرت؛ قلتُ: لأنَّ المراد بها بعض الأنفس، وهي نفس الكافر. ويجوز أن يراد: نفس متميِّزة من الأنفس، إمَّا بلجاجٍ في الكفر شديد. أو بعذاب عظيم. ويجوز أن يراد التَّكثير. وقرىء: ﴿يَا حَسرتى﴾ على الأصل. و﴿يَا حَسرتَاى﴾،=

وأمركم بأحسن ما أنزل إليكم كراهة أن تقول، ومن لا يشترط للنَّصب اتحاد الفاعل يجوِّزُ كون النَّاصب ﴿وَأَنِيبُوا﴾ [الزمر: ٥٤]، أو ﴿وَاتَّبِعُوا﴾ [الزمر:٥٥]، وأيًّا ما كان فهذه الكراهة مقابل الرِّضا دون الإرادة، فلا اعتزال في تقديرها[(١)].

وهو أولى من تقدير (مخافة) -كما فعل الحوفيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]- حيث قال:..

=على الجمع بين العوض والمعوَّض منه. و(الجَنب): الجانب، يقال: (أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته)، و(فلان ليِّن الجَنب والجانب)، ثمَّ قالوا: (فرَّط في جنبه وفي جانبه)، يريدون في حقِّه، وهذا من باب الكناية؛ لأنَّك إذا أثبت الأمر في مكان الرَّجل وحيِّزه، فقد أثبته فيه. ومنه قول النَّاس: (لمكانك فعلت كذا)، يريدون: لأجلك. وقيل: ﴿فَرَّطتُ فِي جَنبِ الله﴾ على معنى: فرَّطتُ في ذاتِ الله عَزَّوَجَلَّ. فإن قلت: فمرجع كلامك إلى أنَّ ذكر (الجَنب) كلا ذكر سوى ما يعطى من حسن الكناية وبلاغتها، فكأنَّه قيل: فرَّطت في الله عَزَّوَجَلَّ. فما معنى فرَّطت في الله عَزَّوَجَلَّ؛ قلت: لا بدَّ من تقدير مضافٍ محذوف، سواء ذكر الجنب أو لم يذكر. والمعنى: فرَّطت في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وما أشبه ذلك. بتصرف عن (الكشاف) (٤٠٤/٣).

(١) والحاصل أنَّ مذهب المعتزلة أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يشاء المعاصي والكفر، ومعلومٌ أنَّ عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمانُ بأنَّ ما شاء الله عَزَّوَجَلَّ كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنَّه ما في السَّموات والأرض من حركةٍ ولا سكونٍ إلا بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، لا يكون في ملكه إلا ما يريد، وهو خالقٌ لأفعال العباد. وقد فرَّقوا -أي: أهل السنَّة والجماعة- بين الإرادة الكونيَّة والإرادة الشَّرعيَّة فقالوا: الفرق بين الإرادتين: ١- الإرادة الكونيَّة قد يحبُّها الله عَزَّوَجَلَّ ويرضاها، وقد لا يحبُّها ولا يرضاها والإرادة الشَّرعيَّة لا بدَّ أنَّه يحبُّها ويرضاها. فالله عَزَّوَجَلَّ أراد المعصية كونًا ولا يرضاها شرعًا. ٢ - والإرادة الكونيَّة مقصودة لغيرها، كخلق إبليس وسائر الشُّرور لتحصل بسبب ذلك المجاهدة والتَّوبة والاستغفار وغير ذلك من المحابِّ. والإرادة الشَّرعيَّة مقصودة لذاتها، فالله عَزَّوَجَلَّ أراد الطَّاعة كونًا وشرعًا وأحبَّها ورضيها. ٣ - الإرادة الكونيَّة لا بدَّ من وقوعها، والإرادة الشَّرعيَّة لا يلزم وقوعها فقد تقع وقد لا تقع..الخ. انظر: روح المعاني (٥٠/٨)، تفسير القاسمي (٤٥١/٣)، تفسير ابن جزي (١٩٢/٣)، التَّحرير والتَّنوير (٢٧٠/٢)، إيثار الحقِّ (ص:٢٣٢)، لوامع الأنوار البهيَّة (٣٣٨/١)، الاستقامة (٢١٥/١)، الزُّهد والورع والعبادة (ص:١٤٧).

(٢) هو علي بن إبراهيم بن سعيد أبو الحسن الحوفيُّ ثمَّ المصريُّ النَّحوي الأوحد، وله التَّفسير المسمى بـ: (البرهان في تفسير القرآن) كتب في بعض المواضع هكذا، وهو تفسير جيِّدٌ في أربعة أسفار ضخام، وأعرب فيه ما يحتاج إلى إعراب، وكتاب: (إعراب القرآن) في (عشر) مجلَّدات أخر، أخذ عن الأدفوي وأخذ عنه خلق كثير من المصريين، وكانت وفاته سنة (ثلاثين وأربعمائة). طبقات المفسِّرين، لأحمد بن محمَّد الأدنروي (١١٠/١)، طبقات المفسِّرين، للسُّيوطيِّ (ص:٨٣)، طبقات المفسِّرين، للدَّاوديِّ (٣٨٨/١).

أي: أنذرناكم مخافة أن تقول[1]. وابن عطيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل العامل ﴿أَنِيبُوا﴾، ولم يقدِّر شيئًا من الكراهة والمخافة حيث قال: أي: أنيبوا من أجل أن تقول[2].

أقول: ولكنَّ الزَّمخشريَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا لم يتعرَّض لهذه المسألة العقديَّة، وإنما أراد بالكراهة ما يقابل الرِّضا دون الإرادة، حيث كره الكافر ما قدَّمت يداه في الدُّنيا وتحسَّر على ذلك..وهو أولى من تقدير: (مخافة)؛ لأنَّه أدلُّ على التَّحسر، فيكون الاحتراز عن قول المعتزلة من كون الإنذار لأجل كراهية وقوع ما لا يشاؤه الله عَزَّوَجَلَّ من كفركم وتحسُّركم..وذلك لا يفهم من تقدير الزَّمخشري هنا.

وذهب بعض النُّحاة إلى أنَّ التَّقدير: (لئلَّا تقول)، وكذلك تنكير: ﴿تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ [هود:١٠٥] للتَّكثير بقرينة المقام. وجوِّز أن يكون للتَّبعيض؛ لأنَّ القائل بعض الأنفس، واستظهره أبو حيَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]. قيل: ويكفي ذلك في الوعيد؛ لأنَّ كلَّ نفسٍ يحتمل أن تكون ذلك. وجوِّز أيضًا أن يكون للتَّعظيم، أي: نفس متميِّزة من الأنفس، إمَّا بلجاجٍ في الكفر شديد، أو بعذاب عظيم، وليس بذاك[4].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا حَسْرَتَا﴾ بالألف بدل (ياء الإضافة)، والمعنى: (يا حسرتي احضري) فهذا وقتك. وقرأ ابن كثير في الوقف ﴿يا حسرتاه﴾ بهاء السَّكت[5].

وقرأ أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يا حسرتى﴾ بياء الإضافة[6]،..

---

(١) وهو قول أبي البقاء العكبري. انظر: التِّبيان (٢/٢١٥)، البحر المحيط (٩/٢١٣)، ابن عادل (١٦/٥٣١).

(٢) المحرَّر الوجيز (٤/٥٣٨).

(٣) انظر: البحر المحيط (٥/٢٦٢).

(٤) أي: لأنَّ التَّحسُّر يقع على كلِّ نفسٍ كافرة..

(٥) روح المعاني (٢٤/١٧)، وانظر: الكشاف (٣/٤٠٤)، تفسير أبي السُّعود (٧/٢٦٠)، البحر المحيط (٩/٢١٣)، فتح القدير (٤/٥٤٠).

(٦) روح المعاني (٢٤/١٧)، الكشاف (٣/٤٠٤)، البحر المحيط (٩/٢١٣)، ابن عادل (١٦/٥٣٢)، المحرَّر الوجيز (٤/٥٣٨)، النَّسفي (٤/٩٢)، الكشف والبيان (٨/٢٤٦)، إتحاف فضلاء البشر (ص:٤٨٢).

..وعنه: ﴿يا حسرتاى﴾ -كما سبق-، بالألف والياء التَّحتية مفتوحة أو ساكنة جمعًا بين العوض والمعوض كذا قيل[1]. ولا يخفى أنَّ مثل هذا غير جائز اللَّهمَّ إلا شاذًّا استعمالًا وقياسًا، فالأوجه أن يكون ثنَّى الحسرة مبالغة على نحو: (لبيك وسعديك)، وأقام بين ظهريهم وظهرانيهم على لغة: (بلحرث بن كعب)[2] من إبقاء المثنى على الألف في الأحوال كلِّها، واختار ذلك صاحب (الكشف)[3].

ومنهم من جوَّز أن تكون التَّثنية على ظاهرها على تلك اللُّغة، والمراد حسرة فوت الجنَّة وحسرة دخول النَّار، واعتبار التَّكثير أولى لكثرة حسراتهم يوم القيامة ﴿نَفْسٌ عَلَى مَا فَرَّطْتُ﴾ أي:بسبب تفريطي فـ﴿على﴾ تعليلية، و﴿ما﴾ مصدرية كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ الله على مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة:١٨٥]، والتَّفريط التَّقصير[4]. ﴿أَن تَقُولَ﴾ تعليل للأوامر في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر:٥٤]، ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ﴾ [الزمر:٥٥]، على حذف (لام التَّعليل) مع (أَنْ) وهو كثير.

---

(١) انظر: الكشاف (٤٠٤/٣)، تفسير أبي السُّعود (٢٦٠/٧)، البحر المديد (٢٧٥/٦)، الكشف والبيان (٢٤٦/٨)، المحرَّر الوجيز (٥٣٨/٤)، الرازي (٤٦٧/٢٧)، التَّحرير والتَّنوير (٤٥/٢٤)، وكذلك قرأ أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يا حسرتاى﴾، ومعنى الجمع بين العوض والمعوض هنا أنَّه جمع بين (الألف) التي هي عوض عن (الياء)، وبين (الياء) وكلاهما موجود.

(٢) (بلحرث) قبيلة صغيرة العدد تسكن بقرب (ديرة المسارحة) بين (جيزان) و(ميدي). معجم قبائل العرب (١٠٢/١)، وانظر: تاريخ الطَّبري (٢٣/١١).

(٣) الكشف والبيان، للثَّعلبي (٤٤٨/١١). و(صاحب الكشف) هو أحمد بن محمَّد بن إبراهيم الثَّعلبي، أبو إسحاق، مفسِّرٌ، من أهل (نيسابور) له اشتغال بالتَّاريخ. كان إمامًا كبيرًا، حافظًا للُّغة، بارعًا في العربيَّة، روى عن أبي طاهر بن خزيمة وأبي محمد المخلدي. أخذ عنه الواحديُّ. من كتبه (عرائسُ المجالس) في قصص الأنبياء، و(الكشف والبيان في تفسير القرآن) يعرف (بتفسير الثَّعلبي). توفي سنة [٤٢٧هـ]. انظر: الأعلام (٢١٢/١)، بغية الوعاة (٣٥٦/١)، وانظر: تذكرة الحفَّاظ، للذَّهبي (١٩٣/٣)، طبقات الشَّافعية، لابن قاضى شهبة (٢٠٣/١)، طبقات الشَّافعية الكبرى، للسُّبكي (٥٨/٤)، طبقات المفسِّرين، للأدنروي (ص:١٠٦)، طبقات المفسِّرين، للسُّيوطي (ص:١٧)، معجم المؤلِّفين (٦٠/٢)، وفيات الأعيان (٧٩/١)، الوافي بالوفيات (٤٨٤/٢)، تاريخ ابن الوردي (٣٣٢/١)، تاريخ الإسلام (١٨٥/٢٩).

(٤) بقليلٍ من التَّصرُّف عن (روح المعاني) (٢٤/ ١٦-١٧).

وفيه حذف (لا النَّافية) بعد (أن)، وهو شائع أيضًا كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ [الأنعام:١٥٥– ١٥٧]، وكقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء:١٣٥][1].

"وتنكير ﴿نَفْسٌ﴾ للنَّوعيَّة، أي: أن يَقول صنف من النُّفوس، وهي نفوس المشركين، فهو كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٤].

وحرف (يا) في قوله: ﴿يَا حَسْرَتَا﴾ استعارة مكنيَّة بتشبيه الحسرة بالعاقل الذي ينادَى ليقبل، أي: (هذا وقتك فاحضري)، والنِّداء من روادف المشبَّه به المحذوف، أي: (يا حسرتي احضري فأنا محتاجٌ إليك)، أي: إلى التَّحسر، وشاع ذلك في كلامهم حتَّى صارت هذه الكلمة كالمثل لشدَّةِ التَّحسر. و(الحسرة): النَّدامة الشَّديدة. والألفُ عوض عن (ياء المتكلِّم).

وقرأ أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وحده: ﴿يا حسرتاى﴾[2] بالجمع بين (ياء المتكلِّم)، و(الألف) التي جُعلت عوضا عن (الياء) في قولهم: (يا حسرتي). والأشهر عن أبي جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الياء التي بعد الألف مفتوحة. وتعدية الحسرة بحرف الاستعلاء كما هو غالبها للدِّلالة على تمكُّنِ التَّحسر من مدخول ﴿عَلَى﴾.

و﴿مَا﴾ في: ﴿مَا فَرَّطْتُ﴾ مصدريَّة، أي: على تفريطي في جنب الله عَزَّوَجَلَّ.

وحرف ﴿فِي﴾ هنا يجوز أن يكون لتعدية فعل ﴿فَرَّطتُ﴾ فلا يكون للفعل مفعول، ويكون المفرَّطُ فيه هو جنب الله عَزَّوَجَلَّ، أي: جهته، ويكون (الجنب) مستعارًا للشَّأن والحقِّ، أي: شأن الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته ووصاياه تشبيهًا لها بمكان السيِّد وحِماه إذا أُهمل

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢٤/ ٤٥).

(٢) سبق بيان هذه القراءة.

حتَّى اعتُدي عليه أو أَقْفَرَ[1]، أو تكون جملة: ﴿فَرَّطت فى جَنب الله﴾ تمثيلًا لحال النَّفس التي أُوقفت للحساب والعقاب بحال العبد الذي عهد إليه سيِّده حراسةَ حماهُ ورعايةَ ماشيته فأهملها حتى رُعي الحِمى وهَلكت المواشي..فيقول: (يا حسرتا على ما فرطت في جنْب سيِّدي). وعلى هذا الوجه يجوز إبقاء (الجنب) على حقيقته؛ لأنَّ التَّمثيل يعتمد تشبيه الهيئة بالهيئة. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ موصولة، وفعل ﴿فَرَّطتُ﴾ متعدِّيًا بنفسه على أحد الاستعمالين، ويكون المفعول محذوفًا، وهو الضَّمير المحذوف العائد إلى الموصول، وحذفه في مثله كثير، ويكون المجرور بـ ﴿فِي﴾ حالًا من ذلك الضَّمير، أي: كائنًا ما فرطتُه في جانب الله عَزَّوَجَلَّ. وجملةُ: ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦] خبرٌ مستعملٌ في إنشاء النَّدامة على ما فاتها من قبول ما جاءها به الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الهُدى فكانت تسخر منه، والجملة حال من فاعل ﴿فَرَّطتُ﴾، أي: فرطت في جنب الله عَزَّوَجَلَّ تفريطَ السَّاخر لا تفريط الغافل، وهذا إقرار بصورة التَّفريط. و﴿إِنْ﴾ مخفَّفة من (إنَّ) المشدَّدة، واللام في ﴿لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ فارقة بين (إنْ) المخفَّفة و(إنْ) النَّافية. و﴿لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أشدُّ مبالغةً في الدِّلالة على اتِّصافهم بالسُّخرية من أن يقال: وإن كنتُ لَساخرة"[2].

و(النَّفس): تطلق على الذَّات كلِّها كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ التى حَرَّمَ اللَّهُ إلا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:١٥١]. وتطلق على الرُّوح التي بها حياة الجسد كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:٥٣].

---

(١) يقال: أقفر المكان وأقفر الرجل من أهله: خلا، وأقفر: ذهب طعامه وجاع، وقفِرَ مالُه قَفَرًا: قلَّ، و(أَقْفَرَ الرجل إقْفَارًا): صار إلى القَفْر، و(القَفْر): المفازة لا ماء بها و لا نبات. انظر مادة: (قفر) في (لسان العرب) (١١٠/٥)، المصباح المنير، (٥١١/٢)، المعجم الوسيط، (٧٥٠/٢)، مختار الصحاح (ص:٥٦٠)، ومقاييس اللغة (١١٤/٥).

(٢) بقليل من التَّصرف عن (التَّحرير والتَّنوير) (٤٧/٢٤).

٤ – إجمال ما يستفاد:

يستفاد من الآية: التَّحذير من الاستمرار في الغفلة التي تؤدي إلى النَّدم حيث لا ينفع.

وإنَّ الإنسان ما دام يأمِّل الحياة فإنَّه لا يقطع أمله في الدُّنيا، وقد لا تسمح نفسه بالإقلاع عن لذَّاتها وشهواتها من المعاصي وغيرها، ويرجِّيه الشَّيطان بالتَّوبة في آخر عمره، فإذا تيقَّن الموت، وآيس من الحياة أفاق من سكرته بشهوات الدُّنيا، فندم حينئذٍ على تفريطه ندامةً يكاد يقتل نفسه، وطلب الرَّجعة إلى الدُّنيا؛ ليتوب ويعمل صالحًا، فلا يجاب إلى شيءٍ من ذلك، فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت. وقد حذَّر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه عباده من ذلك؛ ليستعدُّوا للموت قبل نزوله بالتَّوبة والعمل الصَّالح.

وفي (إعجاز القرآن للباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ): قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾، "وهذا نهاية في التَّحذير من التَّفريط"(١).

وقد ذكر السُّيوطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢) ما جاء في القرآن الكريم من عتاب المرء نفسه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا﴾ [الفرقان:٢٧]...الآيات(٣). وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ الآيات"(٤).

وقد جاء التَّحذير من (يوم الحسرة) حيث يتحسر المفرط على ما مضى.

والتَّحسر كما يكون على النفس وتفريطها كذلك على الغير بسبب ما حاق به من سوء العاقبة حيث لم ينفعهم النُّصح.

---

(١) إعجاز القرآن (٢٨٢/١)، البرهان في علوم القرآن الكريم (٢٢٩/٣).

(٢) الإتقان (٢٤٨/٢).

(٣) انظر: الآيات في (سورة الفرقان) من (٢٧) إلى (٢٩).

(٤) انظر: الآيات في (سورة الزُّمر) من (٥٦) إلى (٥٨).

الرابع والعشرون: ﴿يَا قَوْمَنَا﴾:

في موضعين كلاهما من الجنِّ، وهما: [الأحقاف:٣٠]، [الأحقاف:٣١][1].

وقد سبقَ مَا يتعلَّقُ بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءات العامَّة).

(١) وينظر في بيان كونه من المنادَى المضاف: المقتضب للمبرّد (٤/٢٠٤).